

# الشعر الأعجمي على الأندلسي في عصر المرابطين

وسقوط سرقطة في يد النصارى سنة ١١٢٥هـ / ١١١٨م  
مع أربع وثائق جديدة

تأليف  
الدكتور حسين مؤنس

١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

مكتبة الثقافة الدينية

# مكتبة الثقافة الدينية

المركز الرئيسي: شارع بورسعيد القاهرة

تليفون ٩٣٦٢٧٧ / ٩٢٢٦٢٠

## ”الشجر الأعلى“ الأندلسي

في عصر المرابطين

وسقوط سرقسطة في يد النصارى سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م

مع أربع وثائق جديدة

للككتور ميسين مونس

عثر على الوثائق التي أنشرها في ذيل هذا البحث  
مصدر الوثائق في مخطوطين عربيين داني عليهما زميلي وصديقي  
عبد العزيز الأهواني في مكتبة «ديرسان لورنزو» بالأسكوريال ، يحمل  
أولهما رقم ٤٨٨ والثاني رقم ٤٨٩ مخطوطات عربية . وراجعت ما كتب عنهما  
في فهرس المخطوطات العربية الذي وضعه الراهب الأوغسطيني اللباني  
« ميخائيل الغزيري » بين سنتي ١٧٦٠ ، ١٧٧٠ باسم :

CASIRI: *Bibliotheca Arabico-Hispana Escorialensis*, Madrid,  
1760-1770, 2 vols.

والفهرس الحديث الذي وضعه « ديرنبورج » فلم أجد فيهما إلا أن هذين  
المخطوطين يضمنان نماذج من النثر الفنى الأندلسي في عهدي المرابطين  
والموحدين <sup>(١)</sup> .

وعندما أخذت في دراسة هذه « النماذج » ، تبينت أنها تضم عدداً  
طيباً من « صور » وثائق هامة تتصل بتاريخ « المرابطين » و « الموحدين »  
في الأندلس ، وتبينت بعد قليل أن المادة التاريخية في الكثير منها جيدة  
جديرة بالتحقيق والنشر والدراسة ، إذ أنها تضيف الى معلوماتنا طائفة طيبة

---

(١) راجع فهرس الغزيري المشار إليه تحت رقمي DXVI ( ص ١٥١ ) ورقم  
DXXXV بعد ذلك بقليل وفهرس ديرنبورج تحت الرقم المذكورين أعلاه .

من الحقائق الجديدة القيمة عن أعمال هاتين الأسرتين المغربيتين المجيدتين اللتين  
لأنجد بين أيدينا من المعلومات المفصلة ما يعيننا على معرفة تاريخهما في الأندلس  
معرفة صحيحة .

وليس إلى الشك سبيل في أن هذه «الصور» إنما نقلت عن الوثائق الأصلية  
تقلاً صحيحاً أميناً ، لأننا نجد في صفحة ١٢٠ من المخطوط الأول شهادة  
بصحة هذه الصور صادرة عن عالمين أندلسيين موثوق فيهما هما محمد بن يحيى  
ابن سيد الناس وعمر بن محمد الأزدي المعروف بابن الشلوين أو الشلويني .  
ونص العبارة هو :

« قرأت أبعاض جميع ما تقيد فوق هذا ، ومنها ما أكلته ، وسمعت  
أبعاض ذلك ، ومنها ما كل سماعه على الشيخ الفقيه الأستاذ أبي على عمر بن محمد  
ابن عمر بن عبد الله الأزدي الشهير بابن الشلوين ، رضى الله عنه ، وأجاز لي  
ما فاتني منها في روايته ، وناولني السفر بكليته ، وأباح لي ما في روايته منه ،  
والإسناد إليه فيه ، والله ينفعه بذلك » .

« قاله وكتبه عبيد الله الفقير إليه محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى  
ابن أبي القاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن سيد الناس اليعمرى ،  
وقفه الله حامداً ربه ومستغفراً ذنبه ومصلحاً على نبيه الكريم وعلى آله » .  
« وذلك كله في عقب شهر ذى قعدة سنة ثلاث وأربعين وستمائة » .  
« المكتوب فوق هذا صحيح : قاله عمر بن محمد الأزدي في التاريخ » .  
ومما يدل على أن النسخة التي بين أيدينا هي التي راجعها « ابن الشلوين »  
بنفسه أن اسمه وارد في السطر الأخير منها على هيئة توقيع ، وذلك في ذاته  
أمر عظيم القيمة <sup>(١)</sup> .

ثم إننا سنلاحظ أن معلوماتنا التاريخية تؤيد كل ما تشير إليه الوثائق  
تأييداً تاماً .

---

(١) ظاهر من هذه العبارة أن مخطوطتنا أصلية وأنها ترجع إلى سنة ٦٤٣ هـ .  
مما يزيد في قيمتها . وهي مكتوبة بخط مغربي غير القراءة في مواضع كثيرة ، ولكنها  
في حالة جيدة .

لهذا عمدت إلى ترتيب وثائق هذين المخطوطين ودراستها تمهيداً لنشرها ، ولما كانت تتناول مواضيع مختلفة تتفاوت أهمية فكل وثيقة منها تحتاج إلى دراسة خاصة مفصلة . وقد أخذت في الصفحات التالية أربع وثائق تتعلق بموضوعين اثنين : (الأول) موقعة أفليش التي انتصر فيها المرابطون على جيوش الفونس السادس صاحب ليون وقشتالة في شوال سنة ٥٠١هـ / ٣٠ مايو ١١٠٨م و (الثاني) وقوع سرقسطة في أيدي ألفونس الأول ملك أرغون وقشتالة وليون في ٥١٢ هـ / ١١١٨ م . واستغاثة أهلها بالمرابطين .

ولما كانت الوثائق أدبية الطابع ، تغلب على أسلوبها المحسنات البديعية ، فإن استخراج الحقائق التاريخية منها كان أمراً عسيراً . وكان لابد من مقدمة تاريخية عن المرابطين في الأندلس وتاريخ « الثغر الأعلى » الأندلسي في عصرهم حتى تتضح الاشارات التاريخية الواردة في الوثائق ، وحتى يكون من الممكن الاستفادة منها فائدة صحيحة .

هذا ولا يفوتني كذلك التنبيه على القيمة الأدبية لهذه الوثائق من حيث هي نماذج للنثر الأندلسي في صورة من أزهى صوره ، ولا غرابة في ذلك ، فكتابها ، وهم ابن شرف وابن خلسة وابن أبي الحصان يعينون ذروة من ذرى البلاغة العربية ، ولم يصل إلى شأوهم في هذا الباب إلا قلائل في المشرق والمغرب .

\* \* \*

يعتبر القرن السادس الهجري ( الثاني عشر الميلادي ) المرابطون في الأندلس عصر اليقظة الأخيرة في تاريخ الأندلس الاسلامي ، عصر الصحوة الذي سبق عصور الاضمحلال المتصل التي تبدأ من أول القرن السابع الهجري ، وهي صحوة قصيرة عنيفة سبقتها إرهاصات أنبات عن عود الاسلام الأندلسي إلى النصر والعزة بعد ذلك الانكماش المستمر الذي عاياه طوال القرن الخامس الهجري عقب زوال الخلافة الأموية الأندلسية .

ومن هذه الارهاصات وأظهرها دلالة انتصار « الزلاقة » الذي أحرزته القوات المرابطية الأندلسية في سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ، بعد عام واحد من سقوط طليطلة في يد ألفونس السادس ملك قشتالة ( ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ) ،

فكان ظفر الاسلام بهذا النصر الفريد بعد تلك الكارثة القاصمة إذ اننا بتحول حاسم في مجرى تاريخ الغرب الاسلامي كله ، فقد وقف تيار الغزو النصراني ، وبدأت فترة استرداد إسلامية ، استعادت فيها جيوش المرابطين كثيرآ مما فقدته المسلمون خلال السنوات الأخيرة الماضية ، وارتفعت الجبهة الإسلامية من مجرى « الوادي الكبير » إلى مجرى « تاجه » في ناحية الغرب ، واقتربت جيوش الاسلام من طليطلة وأخذت تنوشها وتحاول استعادتها ، وبدأ بوضوح أن جبهة الاسلام في « شرق الأندلس » لن تلبث أن تعود إلى ما كانت عليه قبل أن يستولى السيّد القمبيطور على بلنسية ( ٢٨ جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ / ١٥ يونيو ١٠٩٤ )<sup>(١)</sup> ويهدد نواحي سرقسطة ومُرسية وبلاد الشرق كلها . وعند ما توفي يوسف بن تاشفين في أول المحرم سنة ٥٠٠ هـ ( ٢ سبتمبر سنة ١١٠٦ م ) ترك لابنه عليّ بن يوسف دولة واسعة الأطراف يصفها ابن أبي زرع بقوله : « وملك جميع بلاد القبلة من سجلماسة إلى جبل الذهب في بلاد السودان ، وملك جميع بلاد الأندلس شرقا وغربا ، وملك الجزائر الشرقية وميورقة ومنورقة ويابسة ، وخُطب له على ألني منبر ونيف وثلاثمائة منبر ، وملك من البلاد ما لم يملكه والده ، لأنه وجد البلاد هادئة والأموال وافرة ، والملك قد توطد والأمور قد استقامت »<sup>(٢)</sup>.

وقد أساء « دوزي » الحكم على عليّ بن يوسف كما أساء الحكم على المرابطين عامة ، واعتمد في حكمه هذا على إشارات يشوبها الهوى أوردها عبد الواحد المراكشي في « المعجب »<sup>(٣)</sup> وما زال يلح في تشويه صورته حتى جعل حكمه من أظلم وأسوأ ما عرفه المغرب الاسلامي : لاعلم ولا أدب ولا رفاة

(١) تحدد الروايات الإسلامية تواريخ مختلفة لسقوط هذا البلد ؛ ولكن تحديد اس الأبار الذي أخذنا به هنا هو أدقها : الحلة السراء ، ص ١٨٩ ؛ وانظر مناقشة

دوزي لتواريخ : Dozy, Recherches, II. pp. 1X VIII sqq

(٢) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ( طبعة نورنبيرج ١٨٤٣ ) ص ١٠٢

(٣) راجع رأي عبد الواحد المراكشي في « المعجب في تلخيص أخبار المغرب »

( طبعة القاهرة ١٩١٤ ) صفحات : ٧٧ ، ٩٥ ، ٩٦

ولارخاء<sup>(١)</sup> . مع أن الواقع يخالف ذلك كله ، فقد كان الرجل أندلسي الروح متفتح النفس ، أحاط نفسه بطائفة من أعظم من عرف الأندلس من أهل الفكر والأدب ، ويكفي أن نذكر منهم أبا بكر المعروف بابن القصيرة وأبا القاسم بن الجدة ، وابن القبطونية ، وأبا محمد عبد المجيد بن عبدون<sup>(٢)</sup> ، ومروان بن أبي الحصم الذي يكاد يكون أعظم ناثر عرفه الأندلس قبل لسان الدين بن الخطيب ، وأخيل بن أدريس الرندي<sup>(٣)</sup> ، ويكفي أن نذكر كذلك أن الفيلسوفين الأندلسيين أبا الوليد بن رشد<sup>(٤)</sup> ، وأبا العلا بن زهر<sup>(٥)</sup> ، كانا من أصحاب علي وجلسائه وقد أشرف الثاني منهما على تربية ابنه تميم هو كان أشبه بالوصي عليه أثناء إقامته في قرطبة نائباً عن أبيه في حكم الأندلس<sup>(٦)</sup> . وكانت أحوال الأندلس على رأس هذه المائة السادسة على حال من السوء كادت تضيق معها آثار انتصار « الزلافة » وثمرات ما بذله يوسف ابن تاشفين من الجهد في استنقاذها من آثار الفوضى التي شاعت فيها بعد سقوط الخلافة الأموية . ولم يلبث هذا الأمير اللتوني الكبير أن استبان أن تركه ملوك الطوائف في إماراتهم حري بأن يذهب بآثار كل جهد يبذله في استنقاذ البلاد ، فعول على خلهم عن إماراتهم وتركيز السلطان كله في يده وأيدى رجال من المرابطين<sup>(٧)</sup> . فجاز إلى الأندلس جوازه الثالث سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م ، واستفتى الفقهاء في أمر هؤلاء الأمراء ، فأفتوه بضرورة

(١) Dozy : *Musulmans d'Espagne* (2<sup>e</sup> éd.) p 155

(٢) المراكشي ، المعجب ، ص ٩٤

(٣) ابن الأثير ، الحلة السراء ( طبعة دوزي ) ص ٢٢٢

(٤) انظر : الحال الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، مؤلف مجهول ( طبعة

علوش ١٩٣٦ ) . ص ٧٥ — ٧٦

(٥) المراكشي ، المعجب ، ص ٧٥ ، والمقرئ ، نفح الطيب ( طبعة أوروبا ) ج ١ ص ٢٨٧

وانظر المناقشات الطويلة التي يوردها صاحب الحال الموشية حول هذا الموضوع ص ٣٠ وما بعدها .

(٦) لدينا وثيقة هامة في المخطوط الذي أخذت منه الوثائق التي أنشرها هنا ، ص ١٧٤

من المخطوط رقم ٤٨٩

(٧) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٦٨٩

خلعهم<sup>(١)</sup> بل يذهب ابن خلكان وابن خلدون إلى أنه كتب إلى ققهاء المشرق — وفي مقدمتهم الغزالي — يستشيرهم في هذا الأمر، فأفتوه بضرورة تخليص الأندلس من أمرائها هؤلاء . وفيهم من بعض الروايات الأندلسية أن يوسف ابن تاشفين إنما أتى إلى الأندلس طامعاً فيها من أول الأمر<sup>(٢)</sup> ، ولكن الغالب أن فكرة خلع هؤلاء الأمراء والاستيلاء على البلاد جملة إنما نبتت في ذهنه بعد موقعة الزلاقة وما رأى من فساد أمر الكثير منهم وسوء تصرفهم في أمور رعيتهم وتقصيرهم في معاونه جيوشه أثناء النضال مع النصارى ، بل إنه استيقن أن بعضهم كان يتآمر مع أمراء النصارى على المرابطين في هذه اللحظة الحاسمة<sup>(٣)</sup> ، وعلى أي الأحوال فقد تصرف يوسف بن تاشفين في هذا الأمر بحكمة وحذر ، وبدأ بالأمير عبد الله آخر أمراء بني زيري أصحاب غرناطة ، فعزله وأخذ البلد منه وأرسله إلى إفريقية . ثم عاد يوسف إلى إفريقية تاركاً قائده «سير بن أبي بكر» ليكمل عزل بقية الأمراء والاستيلاء على ما يدهم من البلاد والحصون ، وقد أتم سير هذه المهمة خلال بضعة شهور ، فلم يفته عام ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م حتى كانت إمارات الطوائف كلها — عدا سرقسطة — قد زالت من الوجود<sup>(٤)</sup> ، وعاد ما بقي من الأندلس الإسلامي موحداً من جديد بيد الأمير المرابطي سير بن أبي بكر الذي اتخذ قرطبة مركز أعماله<sup>(٥)</sup> ، وهكذا عاد هذا البلد إلى مركزه الممتاز بين البلاد بعد أن فقدته طوال عصر ملوك الطوائف .

(١) ابن خلدون ، العبر ( طبعة يولاق ) ج ٦ ص ١٨٧

(٢) انظر : المراكشي ، المعجب ، ص ٧٤

(٣) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٧ ، Dozy, *Musulmans d'Espagne* : III, 139 وراجع التفاصيل التي يوردها ليفي بروفسال عن علاقات المعتمد بن عباد مع الفونس السادس ملك ليون وقشتالة في مقال :

La "Mora Zaida" fille d'Alfonse VI et leur fils l'Infant Don Sancho, ds : Hespéris XVIII, 1934, pp. 1-8.

(٤) المراكشي ، المعجب ، ص ٧٥ وما يليها . وابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٧

(٥) الحلال الموشية ، ص ٥٩



ولا يتسع المقام هنا لتفصيل أمر النظام الذى وضعه يوسف بن تاشفين للحكومة الأندلس ، والمعلومات التى لدينا عن ذلك قليلة جداً على كل حال ، وكل ما نستطيع قوله هو أن المرابطين تركوا الشؤون المدنية بيد الأندلسيين كما كان الحال عليه ، واحتفظوا لأنفسهم بشئون الحرب والدفاع <sup>(١)</sup> ، وكان النائب عن يوسف بن تاشفين فى حكومة الأندلس قائد عسكري هو سير بن أبى بكر ، ثم استبدل به بعد قليل ابنه أبى الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين <sup>(٢)</sup> ، وكان التفاته كله موجهاً الى الحرب وحدها ، وكانت تعاونه هيئة كبيرة من القواد معظمهم من أهل بيته أو من كبار رجال القبائل الممتونية ، وسيكون لبعضهم من أمثال أبى عبد الله بن الحاج وأبى زكريا بن واسينو وجرور الحشمى ، وأبى عبد الله مزدلى شأن عظيم فى الحروب مع النصارى فى الأندلس ، ولم تكن القوة العسكرية التى وضعها يوسف تحت تصرف نائبه بالكبيرة ، فقد قدرها صاحب « الحلال الموشية » بسبعة عشر ألف فارس « موزعة على أقطار معلومة ، يكون منها بأشبيلية سبعة آلاف وبقرطبة ألف فارس ، وفى المشرق أربعة آلاف فارس ، وباقي العدد على ثغور المسلمين للذب والمرابطة فى الحصون المصاوبة للعدو » <sup>(٣)</sup> وليس من المعقول أن تكون هذه هى عدة الجيش المرابطى المقيم فى الأندلس ، لأننا نرى عشرات الألوف من جنودهم فى كل ناحية ، والمنطقى أن هذا هو عدد الفرسان فقط ، وأنه كان إلى جانب هؤلاء الفرسان أعداد عظيمة من الرجالة . وقد كسب المرابطون برجالتهم المنظمة القوية كل انتصاراتهم الكبرى فى الأندلس <sup>(٤)</sup> . ولسنا نفهم السر فى أن يوسف اختص ناحية إشبيلية بسبعة آلاف مع أن الخطر عليها

(١) ليس لدينا عن هذا الموضوع غير بضعة سطور متفرقة يوردها صاحب الحلال الموشية ، انظر صفحات : ٦٣ ، ٦٧ ، ٦٩

(٢) الحلال الموشية ، ص ٦٧

(٣) الحلال الموشية ، ص ٦٥ ، وفى النص أخطاء كثيرة أصلحتها هنا .

(٤) راجع تفاصيل موقعة الزلاقة مثلاً فى : الروض المطار فى خبر الإقطار لابن عبد المنعم الجبرى ( طبعة لى بروقتسال ، القاهرة ) مادة زلاقة ، وهو الأصل الذى أخذ عنه المقرئ وعبد الواحد المراكشى . وانظر التفاصيل الواردة عن واقعة أقلش فى وثيقة رقم ١ المرفقة بهذا البحث .

لم يكن جسيما ، أما الخطر الحقيقي فكان على قرطبة وإقليمها ، أى ناحية الوسط ، ومع ذلك فخصتها من الحماية لم تزد على ألف فارس ، وكان الشرق في ذلك الحين أكثر النواحي استهدافا للهجوم من ناحية نصارى الشمال ، وكانت حامية المرابطين فيه رغم ذلك أربعة آلاف فارس فحسب ، ويبدو أن هذه كانت أعداد القوات الثابتة المقيمة ، ولا شك في أنه كانت ترسل إليها عند اللزوم قوات أخرى تؤيدها ، وسنرى مصاديق ذلك فيما يلي من الحديث .

وقد لاحظنا أن نائب يوسف بن تاشفين استنزل أمراء الأندلس أجمعين عدا صاحب سرقسطة أبى جعفر أحمد بن هود الملقب بالمستعين بالله ، فما الذى حدا به إلى اختصاص هذا الأمير بالرعاية ، وهو لم يخرج عن أن يكون أميراً من أمراء الطوائف ، لا يفترق عن المعتمد صاحب إشبيلية أو المتوكل صاحب بطليوس فى كثير ؟ لى نجيب على هذا السؤال ينبغى أن نلقى نظرة على الحالة العامة فى هذا القطر الكبير من أقطار إسبانيا الإسلامية الذى كان يعرف « بالشغر الأعلى » .

الثغرا الأعلى وسرقسطة عندما انفرط عقد الخلافة الأموية على رأس المائة فى عصر المرابطين الخامسة للهجرة ، كان يحكم هذه الناحية رجل من أنصار المنصور بن أبى عامر يسمى أبو الحكم المنذر بن يحيى ، وكان فارساً جلدأ ذا خبرة ودراية بأمور هذا الثغر المتطرف من بلاد المسلمين <sup>(١)</sup> ، وكانت بينه وبين جيرانه ملوك أرغون من النصارى علاقات وذو موصولة ، وكان هو يعتبر نفسه من أنصار ملك أرغون وأتباعه ، وكان فى نفس الوقت سيداً متبوعاً للكثيرين من أشرف النصارى الذين كانوا يملكون الأراضى والحصون بهذه النواحي الجبلية الوعرة <sup>(٢)</sup> ، فلما مات فى سنة ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م خلفه ابنه يحيى بن المنذر ، ومضى يسوس الأمر على سنن أبيه ، واجتمع بنفسه

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، الجزء الثالث ( طبعة لى بروفنسال )  
 من ١٧٥ — ١٧٦ ، ابن الأبار ، أعمال الأعلام ( طبعة لى بروفنسال سنة ١٩٣٤ )  
 من ٢٢٦ — ٢٢٧ ، وانظر الخريطة المرفقة لتعرف حدود الثغر الأعلى .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ١٧٦

وبناحيته عن الاضطراب العنيف الذي ساد الأندلس كلها في تلك السنوات ، فسلمت له بلاده ، وأقام في دعة لا يكاد ملوك أرغون يدبرون له شراً حتى مات سنة ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م<sup>(١)</sup> ، وخلفه ابنه المنذر فأقام في الإمارة ثلاث عشرة سنة انتهت سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٩ م ، فبدأ سلطان المسلمين في هذا الركن القصي يتزعزع ، وبدأت أطماع أمراء أرغون وأكناد برشلونة تنتجه نحو سرقسطة وأقليمها ، وكان هذا الإقليم يضم حوض «إبر» الأعلى كله ، وفيه من الحصون وكبار المدائن — عدا سرقسطة — «قلعة أيوب» و«دروقة» و«وشقة» و«بربشتر» و«مدينة سالم» و«لوجرونيو» Logroño و«صورية» Soria و«ترويل» Teruel و«إفراغة» Fraga<sup>(٢)</sup> وكان بهذا من أوسع إمارات الطوائف امتداداً ، وكان أهل هذا الإقليم الواسع — مسلمين ونصارى — يعيشون في ظل هذه الأسرة في رخاء وأمن .

وكان من بين أتباع «بنى يحيى» هؤلاء أسرة عربية ترجع في أصلها البعيد إلى قبيلة جذام اليمنية ، هي أسرة «بنى هود» وكانت تملك مدينتي «لاردة» و«تسطيلة» Tudela ، وكان يمثلها في ذلك الحين سليمان بن محمد بن هود ، فلم يكده يلمح خلل الاضطراب تنوش سرقسطة حتى وثب من حصنه ودخلها بأتباعه وحاز الإقليم كله ، وتلقب «بالمستعين بالله» على نحو ما كان يفعل معاصروه من ملوك الطوائف (٤٣١ هـ / ١٠٤٠ م)<sup>(٣)</sup> ، وأصبحت «دولة بنى هود» في سرقسطة والنغر الأعلى كله من أوسع إمارات الطوائف رقعة وأقواها وأعزها جانباً ، واستطاعت أن تحول بين الإمارات النصرانية في هذا الركن الشمالى الشرقى وبين الانسياح إلى بلاد المسلمين كما حدث في «الموسطة» (إقليم طليطلة) و«العرب» (إقليم بطليوس وماردة) .

(١) انظر التفاصيل التي يقدمها ابن حيان وابن خلدون عن سياسة المنذر وابنه يحيى مع جيرانهما من النصارى والمسلمين ، ذيل ١٣ ، ١٤ في :  
Dozy : *Recherches*, I, pp. XXXIV sqq.

(٢) الحلال الموشية ، ص ٦٠ وقد أتمت هذه القائمة من كتاب :  
PRIETO VIVES, *Los Reyes de Taifas* (Madrid, 1926), p. 46.

(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٣ ص ٢٢٢ ، ابن الأبار ، أعلام الأعلام ،

ولم يكن الخطر النصراني على الأندلس الاسلامي من هذه  
بنو هود الناحية بعيداً ولا قليلاً في ذلك الحين ، فقد كانت حدود  
إمارة سرقسطة تتصل مباشرة بحدود ممالك وإمارات إسبانيا النصرانية جميعاً ،  
وقد أرادت المقادير أن يكون على رأس كل منها في تلك الحقبة من تاريخ  
الأندلس أمير قوى طامع في زيادة بلاده على حساب الخلافة الأموية الذاهبة ،  
فكانت تصاقبها من الشمال أربع إمارات نصرانية هي : كوثنية « قطلونية »  
يحكمها أمير واسع المطامع متصل النشاط هو رامون بيرنجير الثاني  
( ١٠٣٥ - ١٠٧٦ م ) ومملكة أرغون وكان يحكمها راميرو الأول  
( ١٠٣٥ - ١٠٦٣ م ) وكان لا يكف عن اجتياح حدود سرقسطة وانتهاك  
ما يصل اليه من أرضها ، وبين هاتين المملكتين الكبيرتين نجد إمارتين صغيرتين  
هما باليارس ( Pallars ) وشرطانية ( Cerdania ) وسيقف صاحباهما إيرمنجول  
الثالث ( Ermengol III ) ورامون ( Ramon ) الى جوار قطلونية وأرغون  
فيما يلي من الاحداث . أما في الشرق فكانت حدود سرقسطة تتصل بحدود  
مملكة قنيرة ( Navarra ) وكان ملكها غرسية الثاني ( Garcia II )  
( ١٠٣٥ - ١٠٥٤ م ) من أشد الطامعين في بلاد المسلمين ، ثم مملكة ليون ( Leon )  
أكبر ممالك إسبانيا النصرانية وأشدّها خطراً على المسلمين في ذلك الحين ،  
وسيكون للملك إذ ذاك فرناندو الأول ( ١٠٣٥ - ١٠٦٥ م ) وأولاده  
من بعده حصبة الأسد في تراث الأندلس الاسلامي ، وكان من حسن حظ  
إمارة سرقسطة وبلاد شرق الأندلس كلها أن كل جهود ملوك ليون ستنتجه  
نحو إمارتي بطليوس وطليلة فترة طويلة من الزمان <sup>(١)</sup> .

ومن ثم كان العبء الملقى على أكتاف بني هود ثقيلًا لا يكاد ينهض به  
إلا الجهد المتصل ، ولم يكونوا يستطيعوا أن يقفوا من جيرانهم النصراني  
موقف العدو المناجز ، بل كان لابد لهم من المصانعة والمداورة حتى يخلصوا  
ببلادهم من الشر المحيق . بل سزاهم يقفون موقف الحياء عند ما يستولى  
ألفونس السادس ملك ليون على مملكة طليطة ( سنة ٤٧٥ هـ / ١٠٨٥ م )

(١) BALLELL ROS: *Historia de España* (1927), II, pp. 295-311.

وسيقفون الى جانب « السيد القنيطور » عند ما يهاجم بلنسية ويستولى عليها  
ويذيق أهلها العذاب بعد ذلك بقليل .

وعند ما توفي أبوأيوب سليمان المستعين في سنة ٤٤١ هـ / ١٠٥٠ م استهدفت  
إمارة سرقسطة خطر جسيم ، إذ تقاسم بلادها أبناءه الأربعة ، وجعل كل منهم  
ناحيته إمارة مستقلة ، فأنفرد أبو جعفر أحمد بسرقسطة وتلقب بعماد الدولة  
المقتدر بالله . واستقل أبو عمر يوسف بلاردة وتلقب بعماد الدولة المظفر ، وأخذ  
محمد قلعة أيوب وتلقب بعمد الدولة ، أما الرابع ، المنذر ، فقد اكتفى بلقب الحاجب  
وفاز بتسطية وتسميه المراجع لب<sup>(١)</sup> . وهي كلمة أندلسية معربة عن «لوبيو»  
(lubo) الاسبانية ومعناها الذئب . ومضى الاخوة يحتربون فيما بينهم ، واستمروا  
على ذلك سنتين استطاع خلالها أحمد المقتدر بالله أن يستولى على ما كان بيد  
أخويه محمد والمنذر ، واستمر يساجل أخاه يوسف حتى غلبه على بلاده  
في أواخر أيامه حوالى سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م . فعادت وحدة الامارة  
على يديه ، بل استطاع أن يضيف اليها أراضى جديدة اذزعها من جيرانه  
النصارى والمسلمين على السواء . فاستولى على طرطوشة (٤٥٣ هـ / ١٠٦٢ م)  
ودانية (سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٧٥ م) . وحاز جزءا من كورة طركونة (Tarragona)  
وأطرافا من بنبلونة (Pamplona) ونواحي من لقنت (Alicante) وبلنسية  
وكان أصحابها في حالة بالغة من الضعف والعجز عن ضبط إمارتهم<sup>(٢)</sup> .

وأحد المقتدر بالله هذا هو أقوى أمراء بني هود وأوسعهم في تاريخ  
فترة الطوائف ذكرا بعد المعتمد بن عباد ، وليس الى الشك سبيل في أنه كان  
أقدرهم على مغالبة شدائد هذه الفترة القاسية ، وأمهرهم في النجاة ببلده وعرشه ،  
وأجراًهم على مناجزة جيرانه من ملوك النصارى وفرسانهم ، وكانت سرقسطة

---

(١) ابن حيان برواية ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ص ٢٢٤ ، وابن الخطيب ، أعمال  
الأعلام ، ص ١٩٧

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٩٨

(٣) استخرج بريتيو ييبس هذه التواريخ من النُسخات ، راجع بحثه القيم عن ملوك

الطوائف : Prieto Vives : Los Reyes de Taifas , pp. 47-49.

في أيامه درة الاندلس الاسلامي ، فقد ابتنى فيها « قصر الجعفرية » الباقي الى اليوم وقصر الذهب الذي قال فيه شعراء الطوائف شعراً كثيراً .

وتوفي أحمد المقتدر بين سنتي ٤٧٤ و ٤٧٥ هـ / ١٠٨١ و ١٠٨٢ م فانقسمت إمارة سرقسطة من جديد ، واقتسمها ابناه يوسف والمنذر ، فأما يوسف فقد تلقب بالحاجب المؤتمن : واستقل بمدينة سرقسطة وغربي الامارة كله ، وانفرد الثاني -- المنذر -- بطرطوشة ودانية والجزء الساحلي من الامارة ، وتلقب بالحاجب عماد الدولة <sup>(١)</sup> ، واستمرت الحرب بين الأخوين : ولم يحدد أوارها حتى بعد وفاة يوسف المؤتمن سنة ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م ، فقد نهض بأوزارها من بعده ابنه أحمد بن يوسف بن هود ، ومضى يحارب عمه المنذر ، وجعل كلاهما يستعين على خصمه بمن استطاع الاستعانة به من ملوك النصارى . وفي عهد يوسف هذا أقبل السيد القنيطور إلى سرقسطة لاجئاً الى أميرها بعد أن نفاه القونس السادس ملك ليون من بلاطه ، وقد انضم السيد الى جيوش يوسف المؤتمن ومضى يحارب أعداءه ، واستطاع أن ينزل بالكونت رامون بيريجير الثاني صاحب قطلونية هزيمة قاسية عند « المنارة » ( Almenara ) وقد وقع الكونت في أسر ابن هود في هذه الموقعة ، وكان لها أثر بعيد في تاريخ « السيّد » وشرق الأندلس كله بعد ذلك . وقد أقام السيد في سرقسطة حتى سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م ، وكانت هذه السنوات بعيدة الأثر في نفسه وتكوينه <sup>(٢)</sup> ، ويبدو أن لقب « السيّد » الذي لزمه بعد ذلك طول حياته كان من آثار هذه الفترة ، لأنه كان يقود جنوداً من المسلمين ، فكانوا ينادونه « يياسيدي » ، فلما عاد الى خدمة القونس السادس لزمته هذه التسمية ، وصار جنده النصارى ينادونه بلقضى ( mio Gid ) .

وفي هذه السنوات كان ألفونس السادس صاحب قشتالة دائم الطمع في سرقسطة وبلادها ، ولولا يقظة يوسف وأخيه وأهبيتهما للدفاع عن بلادها في كل لحظة لضاعت الامارة قسمة بين قطلونية وأرغون

(١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٩٩

LEVI PROVENÇAL, *Le Côté de l'histoire dans l'Islam d'Occident* (٢)  
(Paris 1948), pp. 170 sqq.

وقشتالة ، ويكنى أن نذكر حادثاً صغيراً يدلنا على مقدار ما كانت هذه الامارة الاسلامية تتعرض له من الاخطار : فقد كان أبو جعفر أحمد — الذي تحدثنا عنه — قد سجن يوسف المظفر أخاه بعد أن تغلب عليه ، وأودعه أحد حصون روضة (Rueda) ، وأقام الرجل سجيناً في ذلك الحصن بعد وفاة أخيه ، فلما كانت أيام ابني أخيه هذا — يوسف وأحمد — فر من سجنه في أوائل سنة ٤٧٧ هـ ١٠٨٤ م ، وذهب يحتسب بالفونس السادس ملك قشتالة ، ومات عنده بعد قليل ، فزعم ألفونس أن المظفر نزل له قبل موته عن نصيبه الذي تغلب عليه ، وأسرع بالفعل مع نفر من رجاله فيهم ابن عمه راميرو ونحور وطة وكاد البديقع في أيديهم ، لولا أن يوسف المؤتمن وحليفه القنبيطور وضعاً لألفونس ورجاله كميناً في خانق ضيق على الطريق ، فلم يكادوا يتوسطونه حتى انتهات عليهم الحجارة فهلك منهم نفر ولم ينج ألفونس نفسه إلا بصعوبة<sup>(١)</sup> ، وأراد « السيد » أن يبرئ نفسه من تهمة الاشتراك في هذه المؤامرة ، فرجع إلى ألفونس واعتذر إليه وصالحه وعاد إلى خدمته . وهذا الحادث يدلنا على مقدار يقظة ألفونس وتطلعه لما في أيدي المسلمين ، ويدلنا على يقظة يوسف المؤتمن وشدة حذره ، ويدلنا كذلك على أن الصراع بين الجانبين لم يكن صراع حروب ومواقع فحسب ، بل كان كفاح مؤامرات وحيل ، ولوقد غفت عين أحد أمراء سرقسطة لحظة لاجتماع ألفونس كما ابتلع طليطلة سنة ٤٧٨ هـ ١٠٨٥ م ، دون كبير مشقة .

وتوفي يوسف المؤتمن في ذلك العام ، وصار الأمر في سرقسطة لابنه أحمد على ما قلناه ، فتلقب بالمستعين ، وضاعف الهمة في الحفاظ على ما بيده ، ذلك أن أطاع ألفونس السادس صاحب ليون وقشتالة فيما جاوره من بلاد المسلمين زادت بعد استيلائه على طليطلة . فعول على الاستيلاء على سرقسطة وأقبل يحاصرها ، واستعد أحمد المستعين لهذا الحصار وتحالف مع حميه مروان بن عبد العزيز صاحب « بلنسية » ، واستمر الحصار حيناً ، وتخرج مركز البلد ومن فيه ،

PRIETO VIERA, *Los Reyes de Taifas*, p. 48.

(١)

R. MENÉZES PIDAL : *La España del Cid* (1929), II, p. 571.

ولم يتقدم إلا نزول المرابطين الأندلس<sup>(١)</sup> في ذلك الحين ، فرغ ألفونس  
الخصار وأسرع الى بلده لتحصينها . ثم كانت وقعة « الزلاقة » Sagrajas  
في رجب ٤٧٩ هـ / سبتمبر ١٠٨٦ م وانهمز ألفونس تلك الهزيمة القاصمة  
التي أبعدت خطره عن البلاد الاسلامية الأندلسية كلها الى حين<sup>(٢)</sup> .

فلما استقر يوسف بن تاشفين في الأندلس وأقبل ملوك الطوائف يسترضونه  
ويقدمون له المساعدات والألطف ، كان أحمد المستعين أكثرهم تقربا اليه . وعرف  
يوسف حرج مركز المستعين وصعوبة موقفه أمام ملوك النصارى ، وانعقدت  
بينهما أواصر صداقة سيكون لها أثر بعيد في مستقبل « سرقسطة » ، وحينما  
سأت العلاقات بين يوسف وملوك الطوائف ، ومضى ينزعهم عن إماراتهم  
واحداً بعد واحد ، أسرع المستعين فأرسل ابنه عبد الملك عماد الدولة ،  
ليؤكد لأمر المسلمين يوسف بن تاشفين ولاءه وإخلاصه لقضية الاسلام  
في الجزيرة ، ولين له أنه يرى ، من تهمة التآمر مع النصارى على جيوش  
المرابطين ، وكتب اليه كتابا ، وردّ عليه يوسف بن تاشفين بكتاب حفظت لنا  
المراجع صورته ، يؤكد له فيه حسن ظنه فيه وثقته من إخلاصه للمسلمين ،  
ويؤمّن على بلاده ويعده بالمعونة<sup>(٣)</sup> . ولا نزاع في أن يوسف بن تاشفين قدّر  
خطورة الدور الذي كان أمراء « سرقسطة » يقومون به في تلك الفترة الحافلة  
بالخاطر ، فقد كانوا يقفون كالحائل بين إمارات النصارى وما يليها من بلاد  
المسلمين في شرق الأندلس<sup>(٤)</sup> ، ثم إنهم على رغم اتصالاتهم الكثيرة بالنصارى

(١) أخبار النور الأعلى في هذه الفترة موجزة بإيجازاً شديداً عند مؤرخينا المسلمين ،  
فلم يكن هناك بد من الاعتماد على المراجع النصرانية القديمة : راجع عن أحداث سرقسطة  
في ذلك الحين :

*Primera Crónica General* (éd. M. Pidal, 1906) p. 538 à sqq.  
*Annales Toledanos Primeros* (*España Sagrada*, XXIII, p. 385 à sqq.  
*Historia Roderici* apud : M. Pidal : *España del Cid*, op. p. 558.

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٠٠

*Annales Complutenses en España Sagrada* XXIII, p. 314.

(٣) ورد نص هذين الكتابين في صورتين لا تختلف إحداها عن الأخرى إلا في ألقاظ

قليلة : ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٠٠ — ٢٠١ ، الحلل الموشية ، ص ٦٠

(٤) هكذا قال المستعين بن هود في كتابه إلى يوسف بن تاشفين ، ولم يصلنا نص

كتابيه وإنما وردت خلاصته فقط في المرجعين المشار إليهما في الهامش السابق .



وعلاقات الولاء التي كانت تربطهم بهم بين الحين والحين . لم يحالفوا أحداً منهم على المسلمين ، ولم يقفوا من جيوش المرابطين موقف الحيانة والتقاعس الذي وقفته إشبيلية وغرناطة ومالقة أثناء الصراع العنيف الذي دار بينهم وبين النصاري على حصن « لبيط Alalá » بعد موقعة الزلاقة بقليل <sup>(١)</sup> .

وفي أثناء اشتغال المرابطين بأمراء الطوائف انتهز سانچو راميرز (Sancho Ramirez) الفرصة وهاجم إمارة سرقسطة هجوماً عنيفاً وانتزع منها منشون (Monzon) سنة ٤٨١ أو ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م ، ثم تقدم فحاصر وشقة (Huesca) ومات محاصراً لها ، فغضب ابنه « بدرو » الأول يلح عليها بالخصار حتى استولى عليها في ذي حجة سنة ٤٨٩ هـ / نوفمبر سنة ١٠٩٦ . وقد دافع أحمد المستعين عن « وشقة » دفاعاً مجيداً دون جدوى <sup>(٢)</sup> ، وقد وصف لنا ابن الخطيب معركة الكراز (Alcoraz) التي انتهت بسقوط المدينة تصويراً يعطينا فكرة عن عنف الصراع الذي كان يحدث خلال هذه السنوات كلها بين المسلمين والنصارى حول مدائن سرقسطة والشعر الأعلى ، قال : « وفي سنة ٤٨٩ نازل العدو مدينة وشقة من عمالة المستعين وضيقوا بها ، وحشد المستعين جيوشاً من المسلمين وحمل إليها الميرة ، والتقى الفريقان ووقعت الحروب من لدن طلوع الشمس الى غروبها حتى كادت تأتي على الفريقين . وترك ابن هود المصاف على حاله وقصد مضربه لما ساء ظنه بيوم الكريهة ، ورفع ما كان به من المال ثم كر الى مقامه ، وأبلى الى أن كانت الهزيمة على المسلمين في أخريات ذي القعدة من العام . فقُتد من الناس ما يناهز اثني عشر ألفاً ، والتمس أهل « وشقة » الأمان لثلاثة أيام من يوم الهزيمة » <sup>(٣)</sup> وقد استنصر المستعين أثناء هذا الصراع بحليفه ألفونس السادس صاحب ليون ، فأرسل إليه بعثاً قوياً شد أزره ، وتمكن المسلمون

(١) الحلل الموشية ، ص ٥٤ — ٥٦

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٩٩

BALLESTERO : *Historia de España* : II. p. 323

(٣) أعمال الأعلام ، ص ١٩٩

من أسر فارس من أكبر فوارس النصارى في ذلك الحين وهو غرسية أوردونيذ  
(Garsia Orduniz) صاحب « نخرة Najera »<sup>(١)</sup>.

واستشهد أحمد المستعين بعد ذلك بأربع سنوات في معركة حاسمة  
دارت بينه وبين أرغون أيضاً<sup>(٢)</sup> وهي معركة فالتييرا (Faltierra)  
( رجب ٥٠٣ / يناير ١١١٠ ) ، وبوفاته فقدت سر قسطة آخر أمراءها الكبار  
الذين استطاعوا النجاة بها من الأخطار التي أحدثت بالأندلس الاسلامى كله  
في ذلك الحين ، ذلك أن ابنه الذى خلفه وهو عماد الدولة عبد الملك لم يكن  
من طرازه ولا من طراز جده المقتدر ، وكان اعتماده على النصارى أشد وأظهر  
من اعتماد أبيه ، فنشرت رعيته منه ، وتخرج مركزه داخل بلاده . وعما زاد  
في حرج مركزه اقتراب المرابطين من بلاده وميل أهل سر قسطة الى الدخول  
في طاعتهم أملا في أن يقوموا بحمايتهم من جيرانهم النصارى<sup>(٣)</sup>.

وقد استطردنا عن تتبع أعمال المرابطين العسكرية أثناء إمارة علي بن يوسف ،  
واستقصينا أخبار سر قسطة حتى اقترابهم منها : فلنعد الآن إليهم لتتبع جهودهم  
حتى نصل إلى تدخلهم الصريح في شئون سر قسطة . قلنا إن علي بن يوسف  
لم يكد يستقر على عرش الدولة المرابطية حتى عبر الى الأندلس في نفس العام  
الذى تولى فيه ( ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م ) . وكانت ظروف المالك والامارات  
النصرانية قد تغيرت تغيراً عظيماً خلال السنوات الأولى من القرن الثانى عشر  
الميلادى ( السادس الهجرى ) : توفي ألفونس السادس ملك ليون وقشتالة بعد  
موقعة الزلاقة بعام واحد ، وخلفته ابنته الدونيا أوراقا ( Doña Urraca ) فانحسر  
الخطر المستمر الذى كان يهدد المسلمين من هذه الناحية ، وتوفي كذلك الكونت  
هنرى البرغونى ( Enrique de Borgona ) صاحب كونتية البرتغال ، الذى كان  
يهدد غرب الأندلس كله وخلفته ابنته الدونيا تيريزا ( Doña Teresa ) ، ولم يعد  
الخطر يهدد بلاد المسلمين إلا من الناحية الشالية الشرقية حيث ظلت الحرب

PREFACE VIVERS : Los Reyes de Taifas, p. 49 (١)

P. VIVERS, Los Reyes de Taifas, p. 49 ٢٠٢ من أعمال الأعلام، (٢)

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، من ٢٠٢

مستمرة يقودها أميران نصرانيان على جانب عظيم من النشاط ، هما ألفونسو الأول المعروف « بالمحارب » ( Alfonso el Batallador ) صاحب أرغون ورامون بيرنجير الثالث ( Ramon Berenger III ) صاحب قطلونية<sup>(١)</sup> ، وإزاء هذا التغير الظاهر استطاع المرابطون أن يتركوا الجهة الشمالية الغربية التي شغلهم إلى ذلك الحين ، ليتوجهوا بكل قواهم إلى شرق الأندلس الذي كانت الاخطار تهدده كما رأينا .

أقام علي بن يوسف أخاه « أنا الطاهر تهما » حاكما للأندلس . وجعل مركزه غرناطة<sup>(٢)</sup> ، ولا نستطيع القول بأنه تقل عاصمة الأندلس إلى هذا البلد ، لأن قرطبة ظلت على حالها واسطة عقد البلاد ، وإنما كانت غرناطة أوفق للمرابطين ، لأن معظم أهلها كانوا من بربر إفريقية ، ثم إنها كانت أقرب إلى شرق الأندلس وإلى إفريقية مصدر الأمداد .

وعجل « تميم » بالمسير لحرب قشتالة ، وكان عليه قبل موقعة أقليمش<sup>(٣)</sup> أن يدخل أرضها أن يقضى على الحامية النصرانية التي كانت تحتل حصن أقليمش ( أو أقليمج Uclés ) شرق طليطلة ، وكانت على طريق المسلمين إلى بلنسية وسرفسطة تحول بينهم وبين القيام بعمل حاسم في هذه

(١) Francisco Codera : La Decadencia y Desaparición de los Almorávides en España (Madrid 1899), p. 7.

(٢) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٣

(٣) هذه الواقعة هي موضوع الوثيقة الأولى التي نشرها هنا ، وهذه هي المراجع غير العربية التي تتحدث عنها :

(Crónica de Burgos en Esp. Sagr. XXIII p. 310,

Annales Toledanos en Esp. Sagr. XIII. p. 327

CODERA : Decadencia..., 10-11

BALLESTEROS : Hist. de Esp. II. pp. 232-233

ولم يذكرها من المراجع العربية المنشورة بالتنصّل إلا روض القرطاس : ص ١٠٣ — ١٠٤ والوثيقة التي نشرها تطينا عنها تفاصيل رافية . وقد ذكر عبدالمعز الحميري عن أقليمش أنها قاعدة كُور شَتَبَرِيَّة و ذكر أن فيها جامع كبير . ( الروض المعطار : ص ٢٨ ) وهي الآن في مديرية قوننة (Guenu) وتابعة لمركز تارانكون Tarancón .

cf : LÉVI-PROVENCAL La Péninsule Ibérique au moyen-âge d'après Kitab ar-Rauḍ al-mi'ṣṣir (Leiden 1938) p. 35

الناحية: فحاصرها المرابطون ، وكان ألفونسو السادس يعلق عليها أهمية كبرى ، فأخذ الأهبة للمسير لدفاع المرابطين عنها ، وكانوا قد قضوا على الكثير من جندها وأجأوا البقية الى التحصن بقصبة البلد « فأشارت عليه زوجته أن يوجه ولده عوضاً منه ، فيكون مواجهها تميم ، لأن تميم ابن ملك المسلمين وشانجة ابن ملك الروم ، فسمع منها ، فبعث ولده شانجة في جيوش كثيرة من زعماء الروم وأنجادهم » كما يقول ابن أبي زرع : وكانت الوقعة حامية يذهب رواة المسلمين إلى أنه هلك فيها من النصاري ثلاثة وعشرون ألفاً ، وتقرر الروايات النصرانية أن سبعة من أكبر فرسان النصاري هلكوا فيها، ولهذا يسمونها « موقعة الأكتاد السبعة ( Batalla de los Siete Condes ) : وقد هلك فيها من المسلمين عدد عظيم كذلك ، وأراد تميم ترك البلد للنصاري والانصراف عنه لولا أن قواد لمتونة من المرابطين أصروا على الاستمرار في القتال ، وقد مضوا فيه حتى انهزم القشتاليون انهزاما تاما ( ١٧ شوال ٥٠١ هـ / ٣٠ مايو ١١٠٨ م ) ، وقد قتل في هذه المعركة « شانجة » بن ألفونس وولي عهده ، وقد هاضمت هذا الكارثة نفسه ، فتوفي بعدها بنيف وعام ( ٣ يونيو ١١٠٩ / ٢٩ شوال ٥٠٢ هـ )<sup>(١)</sup> .

وقد تشجع المرابطون بعد هذا النصر ، وأقبلوا في سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م — ١١١٠ م ، يقودهم على بن يوسف نفسه ، ووجهتهم طليطلة ، وإقليمها ، فشنوا عليها غارات عنيفة ، واسترجعوا من كبار مدائنها « مجريط » ووادى الحجاره ( Guadaluja ) ، وحاصروا طليطلة شهرا دون أن يصلوا الى نتيجة ، وعادوا الى قرطبة بعد أن ألقوا الرعب في نفوس أهل قشتالة وأمنوا خطرهم ، فانتهر على بن يوسف فرصة الهدوء في هذه الجهة ، وأرسل قائده الأمير « سير بن أبي بكر » في حملة عنيفة الى غرب الأندلس استعادت مدائن شنترين ( Santarén ) وبطليوس ( Badajóz ) وبرتقال ( Oporto ) ويأثيرة<sup>(٢)</sup> .

(١) وقد ذكر ابن أبي زرع خطأ أنه توفي بعد المعركة بمشرين يوما. روض القرطاس ،

س ١٠٣

CODERA, *op. cit.*, p. 10, 239-242

BALLESTEROS : *Hist. de Esp.* 11. p. 232-233

(Evora) وأشبونة (Lishoa) (٥٠٤ هـ / ١١١٠ م)<sup>(١)</sup>، وقد وإلى المرابطون الحملات على طليطلة خلال السنوات التالية كلها دون أن يصلوا إلى نتيجة . وكان مركز الاسلام في شرق الأندلس قد تحسن تحسناً كبيراً بعد أن استعاد المرابطون بلنسية من النصارى في سنة ١١٠٢ م . بعد أن أقامت هي وإقليمها تحت سلطان رودريجو دياز د بيثار المعروف بالسيد القمبيطور (El Cid Campador) قرابة السنوات العشر (٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م — ٤٩٥ هـ ١١٠٢ م) وقد استخلصها من أيدي رجال هذا المغامر القشتالي القائد المرابطي أبو عبد الله محمد بن مزدي ، بعد كفاح طويل مرير مع زوج السيد «شيانة» (Chimena) وألفونس السادس، ولم يغادر النصارى بلنسية إلا بعد أن أشعلوا فيها النار ، وجعلوها كومة رماد<sup>(٢)</sup> ، ولكن عودتها قوّمت الجبهة الاسلامية في شرق الأندلس ، وفتحت الطريق أمام المرابطين لتأمين سرقسطة والغر الأعلى ، وأمنت ما يليها إلى الجنوب من البلاد مثل مرسية ومالقة .

وكانت أحوال « سرقسطة » تسير في ذلك الحين من سيء إلى أسوأ ، وكان أهلها قد سكنوا خلال المدة الماضية لما كان من همة أميرهم «المستعين» واقتداره على مناصرة «السيد» و«ألفونسو السادس» والنجاة ببلاده من شرها . وقد أخذ المؤرخون عليه صداقته مع «السيد» وإيواءه إياه واستخدامه له في حروبه ، وأخذوا عليه كذلك وقوفه مكتوف اليد أمام ما كان «السيد» ينزله بأهل بلنسية من الويلات<sup>(٣)</sup> ، ولكن الرجل لم يكن ليستطيع فعل شيء

(١) ابن أبي زرع ، دوح القراطس ، ص ١٠٥

(٢) لا يتسع المقام هنا للكلام عن «السيد القمبيطور» وعلاقته بالمسلمين وفظائمه في بلنسية . وقد انجابت الآن كثير من الشكوك التي كانت تحيط بحياة هذا الفارس القشتالي الذي جعلته أشمار اللاحم الاسبانية أعظم رجال عصره ، ثم جاء متندذ يدان فجعله أعظم أبطال التاريخ الاسباني إطلاقاً في كتابه المعروف *La España del Cid* وقد قرر فيه آراء تستدعي من جانبنا استدراكاً شاملاً .

(٣) راجع ما يقوله «ابن عذارى» في القطعة التي نشرها إيثي بروقتساك من الجزء الرابع من «البيان المغرب» في مجلة الأندلس :

LEVI PROVENÇAL: *La Toma de Valencia por el Cid*. Al-Andalus, Vol. XIII, 1948, fasc. 1 p 123

لأنه كان بين المطرقة والسندان ، ولو اتفق «السيد» و«ألفونسو السادس» عليه لضاعت سرقسطة من ذلك الحين . ثم إن قوات المرابطين كانت بعيدة عنه في مرسية ، ولم يكن في استطاعتها الوصول الى بلاده . فلما توفي السيد في سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م ، أمن المرابطون بعض الشيء ، وبدأت آمالهم تعود في الاستيلاء على شرق الأندلس كله ، وحمايته من أذى المغامرين من فرسان النصراري وملوكهم .

وتدل الدلائل كلها على أن المرابطين وجهوا معظم همهم في ذلك الحين الى شرق الأندلس ، فأقام علي بن يوسف أخاه أبا الطاهر تيمناً عاملاً على الأندلس ، وندب هذا أكبر قواده «محمد بن الحاج» قائداً لجيوشه في الشرق وجعل مركزه مرسية ، وجعل معه نفراً من أكبر قواد «لمتونة» تذكر المراجع منهم محمد بن عائشة ومحمد بن طاطمة وأبا بكر إبراهيم بن تافلوت أو «تافلويت» وجعل مع كل منهم قطعة كبيرة من الجند يخرج بها للغزو في نواحي سرقسطة وبرشلونة وما يليهما من أراضى النصراري ، وكان أبو بكر إبراهيم ابن تافلوت حاكماً مديناً لمرسية وإقليمها (١) .

وهلك المستعين بن هود — على ما مر — في سنة ٥٠١ هـ ، وخلفه ابنه عبد الملك عماد الدولة ، ولم يكن من نسيج أبيه ، فبدأت مخاوف أهل سرقسطة تزايد ، وكان عبد الملك شديد الخوف من أن يسير «المرابطون» من مرسية ويستولوا على بلاده ، فجعل يميل الى جيرانه النصراري ميلاً قوياً ، وخشى السرقسطيون مغبة ذلك ، فشرطوا عليه «ألا يستخدم الروم ولا يلابسهم ، فنقض بعد أيام يسيرة ذلك ، لما استشعر من ميل الناس الى المثلثين» (٢) .

وكانت الجبهة النصرانية قد جدد عليها عامل جديد سيكون بعيد الأثر في مصير الأندلس الاسلامي ، ذلك هو صعود «ألفونسو الأول» الملقب «بالمحارب» (Alfonso el Batallador) عرش أرغون سنة ٤٩٨ هـ / سنة ١١٠٥ م ، فقد كان فارساً جليداً متجدهم المهمة شديد الطمع فيما

(١) ابن أبي ذرع ، روض القرطاس ، ١٠٤٠

(٢) ابن الأثير ، الحلة السراء ، ص ٢٢٥

جاوره من بلاد المسلمين . وكان الى نشاطه وذكاؤه سعيد الحظ ، إذ أنه تزوج « أوراکا Urraca » ابنة ألفونس السادس الوحيدة ووارثة ملكه ، فلما توفي هذا انضمت ليون وقشتالة الى أرغون ودخلت في طاعته كذلك إمارتا « جليقية » و « البرتغال » وكانتا تؤديان اليه الجزية ، فأصبح « ألفونسو المحارب » بهذا يملك معظم شبه الجزيرة ، لا يخرج عن سلطانه إلا قطلونية في الشرق وبلاد المسلمين ، وكان قد ورث عن سلفه وأخيه « بدرو » الحماس المسيحي والرغبة في الاستيلاء على ما بيد المسلمين من بلاد ، وكان « بدرو » قد حوّل الكفاح بين الاسلام والتصرانية في شبه الجزيرة الى حرب صليبية ، لأنه « لما أسفرت الحرب الصليبية عن النجاح ، وظار الصليبيون بافتتاح بيت المقدس ، أعلن البابا بسكال الثاني الحرب الصليبية في إسبانيا ضد المسلمين ، وإذ كان التصارى الاسبان قد مُنعوا من مرافقة الصليبيين الى بيت المقدس ، فقد رأى بدرو ورعاياه أن يشهروا الحرب الصليبية في إسبانيا ذاتها ضد ( أعداء الدين ) »<sup>(١)</sup> . بهذه الروح الجديدة سار ألفونسو المحارب في حربه مع المسلمين ، وكانت وجهته من أول الأمر « سرقسطة » إذ كانت أعظم مدائن الشمال الشرقي ، وكانت تترأى أمامه فريسة سهلة لا يكاد يعصمها منه غير « المرابطين » . وزاد طمعه فيها وفاة المستعين وقيام ابنه عبد الملك عماد الدولة بالأمر من بعده ، ولولم يُشغل ألفونس عن « سرقسطة » بما نشب من الحروب بينه وبين زوجته أوراکا وأنصارها ، لتقدم سقوط سرقسطة في يده بضع سنوات .

ولم يكن لعبد الملك بن هود بد من مداراته . ويبدو أن عبد الملك أسرف في المدارة والانكماش أمام ألفونس المحارب ، نخشى المرابطون أن ينتهى الأمر بضيماع « سرقسطة » ، فسير محمد بن الحاج قائد محمد بن فاطمة في جيش صغير نحوها ، فلما اقترب منها خشي أهلها أن يسرع أميرهم بالاستنجاد بالنصارى ، فأشاروا عليه « بأن ينصرف عنهم ، ولا يبدأ بالفتنة ، ويحني عليهم

(١) اشباخ : تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ( تعريب الامتاز

محمد عبد الله عنان ) : ج ١ ص ١٤٦

استغاثة أميرهم بالروم ، فأنصرف عنهم <sup>(١)</sup> . وزادت مخاوف عبد الملك من ناحية الرابطين ، وعول على الاستنجاد بالروم رغم ما كان أهل البلد قد شرطوا عليه من عدم الاستعانة بهم أو محالقتهم ، وبلغ الخبر مجدداً بن الحاج قائد الرابطين ، فأسرع بالسير نحو سرقسطة سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م ، وعجل عبد الملك بالاستعانة بالقونس ، فأسرع مجدداً بن الحاج وتمكن من دخول البلد واحتلاله ، وخرج عبد الملك بن هود إلى الشمال واستقر بمحصر روضة (Rueda) تحت حماية القونس الأول المحارب ملك أرغون ، وبذلك انتهى الدور الأول من تاريخ بني هود في سرقسطة ، وسيتجدد لهم الأمر في نواح أخرى من الأندلس في أواخر أيام الموحدين ، ويبدأ بذلك الدور الثاني من تاريخهم .

فلما تمكن الأمر للرابطين في سرقسطة تجردوا للحرب رامون بيرنجير الثالث كونت برشلونة ، وكان من ألد أعداء المسلمين ، لا يزال يناجزهم ويعتدى على بلادهم ما أمكنته الفرصة ، فخرج مجدداً بن الحاج في حملة قوية نحو برشلونة في سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م . وصاحبه القائد مجدداً بن عائشة ، ومر الجيوش في طريقه إلى برشلونة بمحصر ريفيرا (Cervera) <sup>(١)</sup> فخر به ، ثم وسل إلى أحواز عاصمة قطلونية ، واجتهد الرابطون في تخريب أرباضها وزروعها ، وعجزوا عن الاستيلاء على البلد لحصانته ، وعادوا محملين بالغانم الوافر ، ويبدو أن الغنائم كانت كثيرة جداً ، لأن مجدداً بن الحاج أرسلها مع معظم الجيش على الطريق الكبير (الرومانى ؟) ، أما هو ففضل أن يختصر الطريق مع لمة مختارة من جنده فيهم مجدداً بن عائشة ، فسار في مفاوز وعرة ومضائق مليئة بالمخاطر ، فأنهز جنود برجلونة الفرصة ، وكنوا له عند ضائق وعر قريب من حصن كونجست دل مارتوتريل (Congost del Martorell) وهاجموه « فقاتلهم قتال من أيقن بالموت ، واعتنم الشهادة ، إذ لم يجد منفذاً

(١) أخذت الاسم الصحيح لهذا الحصن من الرواية النصرانية ، وقد ذكر ابن أبي ذرع في وصفه لهذه الحملة حصناً باسم « البرية » وربما كان هذا اللفظ تحريفاً من الناسخ لاسم الحصن .  
انظر :

(CODERA : *Decadencia...* p. 21

وابن أبي ذرع ، روض القرطاس ، ١٠٤  
(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٠٢



يخلص منه ، فاستشهد رحمه الله . واستشهد معهم جماعة من المطوعة ، وتحلص منهم القائد محمد بن عائشة ففر بالخيالة إلى بلاد المسلمين »<sup>(١١)</sup> (٥٠٨/١١١٤م) وكانت لهذه الكارثة رجة كبرى في بلاد الأندلس ، وعجل الأمير علي بن يوسف فأقام الأمير أبا بكر بن ابراهيم بن تافلوت المسوي<sup>(١٢)</sup> حاكم مرسية إلى ذلك الحين ، حاكما على شرق الأندلس . وقد أصيب محمد بن عائشة في هذه المعركة أصابة لم يلبث أن فقد بصره بسببها فيما بعد<sup>(١٣)</sup> .

وتجرد أبو بكر ابراهيم بن تافلوت لحرب برشلونة للأخذ بثأر هذه الهزيمة ، فجمع جنداً كثيرين وسار بهم إلى بلنسية ثم إلى سرقسطة ، وجمع من نواحيها من استطاع من الجند ، وسار فنزل برشلونة وضيقي عليها وأزل بزارها خراباً شاملاً<sup>(١٤)</sup> .

وكان الأمير علي بن يوسف قد عزل أخاه تيماء عن ولاية الأندلس واستبدل به الأمير سير بن أبي بكر ، فأقام في الولاية حتى وفاته سنة ٥٠٧/١١١٣م فولّى حكم الأندلس مكانه الأمير محمد بن فاطمة ، فأقام حاكماً إلى أن توفي سنة ٥١٠/١١١٥م خلفه في هذا المنصب الكبير الأمير عبد الله مزديلي ، وكان من كبار قواد المرابطين ، فأبدى نشاطاً عظيماً في حرب النصاري ، ولم يقصر جهوده على إقليم بلنسية وطليلة وغرب الأندلس كما كان سابقه يفعلون ، بل اتجه بهيمته إلى الشعر الأعلى ، وكان الضغط الصرائي قد اشتد عليه من كل ناحية : كان الكونت رودريجو نونيز Rodrigo Nuñez ( يسميه ابن زرع « بنى الزند غرسيس » ) صاحب « وادي الحجارة » قد سار إلى « مدينة سالم » فحصرها ، فسار إليه عبد الله مزديلي واضطره إلى الفرار تاركاً عسكره وأثقاله ،

(١١) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٤

(١٢) يرد اسم هذا القائد عادة دون نسبة ، وقد عثرت على نسبته تلك عند ابن خلدون :

المبر ، ج ٤ ص ١٨٨

(١٣) اختص ابن الأثير ابراهيم بن تافلوت بمادة من مواد « المعجم وأخبار أبي علي الصديقي » ( ص ٥٥ ) ومنها نعرف أنه ابن يوسف بن تاشفين ، وأنه كان يعرف بابن تيبشت .  
« يسمى ابن الأثير هذه الوقعة » بوقعة البورت .

(١٤) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٥

ثم توجه الى إقليم سرقسطة ليدفع عنه هجوماً عنيفاً قام به ألفونس الأول  
المحارب صاحب أرغون ، واشتبك أبو عبد الله مزدلي معه في قتال عنيف  
استشهد فيه سنة ٥٠٨هـ / ١١١٥ م<sup>(١)</sup> ولم تحدد لنا المراجع مكان ذلك اللقاء .  
وفي هذه الأثناء كانت الحرب بين أبي بكر بن تافلوت قائد المرابطين في  
سرقسطة وبين رامون برنجير صاحب برشلونة مستمرة على أشدها ، وانكسر  
المرابطون كسرة شديدة في سهل برشلونة في أواخر سنة ٥٠٨هـ / ١١١٥ م .  
وبعد ذلك بسنتين توفي ابن تافلوت آخر كبار حماة شرق الأندلس  
من المرابطين<sup>(٢)</sup> ، واشتد الضغط على سرقسطة وبدأ بوضوح أن مصيرها  
الى النصارى ( ٥١٠ هـ / ١١١٧ م ) .

وفي أوائل سنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م تخرج أمر المرابطين في شرق الأندلس  
بل في الأندلس عامة بعد أن تخطف الموت كبار قوادهم على ما رأينا ،  
وبعد أن استشهدت زهرة رجالهم في ميادين الجهاد جماعة بعد جماعة ، فاضطر  
علي بن تاشفين إلى الجواز بنفسه ، فأقبل إلى قرطبة في صفر من ذلك العام ، وأقام  
محمد بن عبد الله مزدلي على قيادة جيوش المرابطين في سرقسطة وزوده بمشهود  
من الجنود والمطوعة . وكان « ألفونس المحارب » قد أقبل يحاصر سرقسطة  
وأذاق أهلها بلاء شديداً ، فلم يزل محمد بن مزدلي يدافعه عنها حتى ألجأه  
إلى رفع الحصار . وبعد عام من الصراع العنيف توفي محمد بن مزدلي ولم يتسع  
الجال أمام المرابطين لتولية خلف له ، فبقى البلد أعزل لا يكاد يحميه أحد .  
فانتهاز ألفونس الفرصة وأقبل يحاصر البلد من جديد<sup>(٣)</sup> ( ٥١٢ هـ / ١١١٨ م ) .  
وزاد طمع ألفونس حينما وجد إقليم سرقسطة خالياً من جند المرابطين .  
فحاصر « لاردة » وكاد يستولى عليها ، فأرسل أهلها يستنجدون بعلي بن يوسف  
فبعث أخاه تيماء وأقامه عاملاً على شرق الأندلس ، فسار تيماء في جيش كبير

(١) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٥

(CODERA : *Almoráides...* p. 249

(٢) ابن الخطيب ، الاحاطة ( مخطوط الاسكوريال ) ورقة ٩٨

(٣) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٥

(CODERA. *Almoráides*. p. 250)

وسار معه عمه يحيى بن تاشفين صاحب قرطبة ، ونبثوا لألفونس حتى أجبروه على رفع الحصار عن « لاردة » بعد أن فقد نحو عشرة آلاف من جنده<sup>(١١)</sup> ومضوا يتعقبونه في بلاده . ولم يستطع تميم الاستمرار في القتال ، لأن أمور المرابطين اضطربت في مراکش ، فاضطر إلى العودة إلى بلنسية . ومنها رجع إلى مراکش ، وكان بهوم بأمر مرسية لعل بن يوسف أخوه أو إسحاق إبراهيم ، فأسرع إلى سر قسطة ليركب أمورها بعد انصراف تميم ، ولم يطل مقامه فيها ، وعاد إلى مرسية<sup>(١٢)</sup> وخلا الحو بذلك أمام « ألفونس المحارب » فعاد هذه المرة « في أم كالمل والجراد ، فزلوا معه بها ، وشرعوا في قتالها ، وصنعوا أبراجا من خشب تجرى على بكرات ، وقربوه منها ، ونصبوا عليها عشرين متجيقا ، ووقع طمعهم فيها ، فاستمر الحصار عليها حتى فنتت الأقوات وفي أكثر الناس جوعا . فراسلوا ابن رديمير ( ألفونس الأول المحارب ) على أن يدفع عنهم القتال إلى أجل . فان لم يأتهم من ينصرم خلفوا له البلد وأسلموها له ، فهدمهم على ذلك ، فتم له الأجل ، ودفعوا إليه المدينة ، وخرجوا عنها إلى مرسية وبلنسية . وذلك في سنة اثنتي عشرة وحماسة ، وبعد دخولها وتملك النصاري إياها وصل من العدو جيش من عشرة آلاف فارس لاستنقاذها ، فوجدها قد فرع منها وملكها العدو ونفذ حكم الله فيها<sup>(١٣)</sup> . هكذا سقطت سر قسطة قاعدة الاسلام الكبرى في شرق الأندلس ، وعجز المرابطون عن استردادها ، لأن أمور دولتهم كلها كانت قد اضطربت بسبب ظهور الموحدين واشتداد القتال بينهم وبين المرابطين في إفريقية .

وعلى رغم المصاعب التي أحاطت بعلی بن يوسف فقد عبر إلى الأندلس سنة ٥١٣هـ / ١١١٩ م ليغيث أهلها من ضغط أمراء النصاري في كل ناحية ، وقد بذل علی بن يوسف جهده وأقام أخاه تيمما حاكما عاما على الأندلس من جديد ، فحضى هذا يشن الغارات على إقليم طليطلة ، ولم تعنه الظروف على الالتفات

(١١) ابن أبي ذرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٦

(١٢) ابن الخطيب ، الذخيرة ( مخطوط الاسكوريال ) ص ٩٨

(١٣) ابن أبي ذرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٦

إلى ناحية الشرق . وأقام أهل شرق الأندلس يلحون في طلب النجدات حتى استمع اليهم تميم وبعث اليهم قوة مرابطية صغيرة يقودها الأمير أبو اسحاق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين ، وتحمس أهل شرق الأندلس حماساً عظيماً وخرج كل من استطاع الخروج معهم حتى العلماء من أمثال أبي علي الصدقي وأبي بكر بن العربي لم يترددوا في اغتنام الشهادة . وكان ألفونس محاصراً «لقلعة أيوب» ، فساروا نحوه . والتقوا معه عند بلدة (كتندة) على مقربة منها ، وهناك دارت رحى معركة عنيفة ألزم فيها المسلمون هزيمة فادحة ، ومات من المطوعة بضعة آلاف فيهم أبو علي الصدقي ، ويؤكد المقرئ أن أحداً من جند المرابطين لم يهلك فيها . لأنهم تركوا المطوعة يصلون نيران المعركة وجددهم . (ربيع الأول أو الثاني سنة ٥١٤ هـ / يونيو أو يوليو سنة ١١٢٠)<sup>(١)</sup> .

ويكفي للدلالة على الصدى البعيد الذي كان لهذه الهزيمة في بلاد المسلمين أن نذكر أن علياً بن يوسف جاز إلى الأندلس بنفسه في العام التالي (٥١٥ هـ / ١١٢١ م) لكي يأخذ بثأر هذه الهزيمة : ولم يستطع التقدم نحو سرقسطة ، لأن الطريق إليها كان قد أقفل كما ذكرنا ، فاكثف بمغازاة نواحي طليطلة والبرتغال وألحق فيها واستولى على قلعة قلبرية Coimbra<sup>(٢)</sup> على شاطئ المحيط الأطلسي . ثم عاد إلى إفريقية بعد ذلك تاركاً أمور الأندلس لاختيه تميم وسرى أن تمها سيجاول بعد ذلك الانتفات إلى سرقسطة لاستنقاذها ؛ ولكن محاولته ستكون هزيلة ، لأنه لم يجرؤ على الثبات للنصارى وانهمزم أمامهم عندما كان يعرف بالقلعة أو القلاع لم نستطع تحديد موقعه بالضبط) انظر مقدمة الوثيقة الثانية) .

(١) راجع عن معركة كتندة : ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٦ — ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٤ — ابن ادبار : المجمع في أخبار أبي علي الصدقي ، ص ٧ — المقرئ ، فتح الطبيب ، ج ٣ ص ٧٥٩ (الجمعة القاهرة) .

SAN JUAN DE LA PEÑA, *Cronicon*, p. 68.

ZULIYA, *Annales* Lib I Cap. XLIV.

*Annales Compostelani* Esp. SACR. XXIII, p. 321.

(٢) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٦

أشباح ، تاريخ أندلس . . . . ص ١٥٣

وكانت لمزينة كسندة الفاسية نتائج بعيدة المدى في مصر « الثغر الأعلى »  
الأندلس كله ، إذ أن استيلاء « الفونس » على هذا الحصن المنيع المجاور  
« لدروقة » قد سهل له الاستيلاء على هذا البلد الأخير وعلى حصن « قلعة  
أيوب » المجاور له . وبهذا أصبح يسيطر سيطرة تامة على سهل الإبرو الأعلى ،  
ولم يعد من الميسور لجيوش المسلمين أن تنهض لانقاذ سرقسطة ، وسترينا  
الوثيقة الثانية كيف أن المرابطين لم يجرؤوا بعد ذلك على مجرد الاقتراب  
من سرقسطة ، لأن « كتند » « وقلعة أيوب » كانتا في يد هذا المحارب  
الأرغوني الذي لا يكل ، وكان ينفذ لا تغفل له عين عن حراسة بلاده ، كلما  
استولى على معقل من معاقل المسلمين اتجهت به المهمة الى الذي يليه .

وكانت تلك آخر محاولة جديّة قام بها المرابطون لاستنقاذ سرقسطة ،  
ولم يحاول أحد من أمراء المسلمين استعادتها بعد ذلك على رغم ما بذل المرابطون  
والموحدون بعد ذلك من محاولات : لم يتسع الوقت أمام المرابطين لاعداد  
العدة لاستعادة هذا البلد الكبير ، لأن المعركة الطويلة بينهم وبين الموحدين  
كانت تشتت يوما بعد يوم ، فلم يعودوا يستطيعون إرسال جيوش كبيرة  
إلى الأندلس . ولم يكن من المستطاع استعادتها إلا بجيش كبير ، لأن الفونس  
المقاتل صاحب أرجون أرصد قوته كلها للحفاظ على تلك الغنيمة العظيمة  
التي سفلت بين يديه ، وقد رأينا إصراره على أخذها وتركيز قواته كلها  
للقوز بها طوال نيف وعشر سنوات . ثم إن أهل الأندلس جميعاً ضاقت  
نفوسهم بالمرابطين ، وعمّا قريب تبدأ الثورة عليهم في كل بلد أندلسي ،  
ولن يدع هؤلاء الأندلسيون فرصة يسيئون فيها إلى المرابطين إلا ابتدروها ،  
وسيقف المرابطون في الأندلس موقف المدافع عن نفسه أمام مسلمي الأندلس .  
فكيف كان يتاح لهم التفكير في استنقاذ هذا المعقل الاسلامي الذي ضاع الى الأبد ؟  
هكذا سقطت « سرقسطة البيضاء » درة « الثغر الأعلى » وطلية  
حصون الاسلام في معركة الطويلة مع النصرانية في إسبانيا ، أضاعها  
الأندلسيون بما أسرفوا فيه من عداوة المرابطين وأضاعها المصادفة السيئة ،  
مصادفة ظهور الموحدين في ذلك الحين .

ولقد رأينا ما بذله المرابطون في سبيل سرقسطة وشرق الأندلس :  
كم من جيش لهم هلك مناجزاً عن حومة الاسلام ، وكم من قائد لهم سقط  
في سبيل سرقسطة ولاردة وبلنسية وغيرها من حصون الاسلام ولكن  
شيئاً من ذلك لم يُعند ، فقد كان قضاء الله قد سبق ولم تعد تنفع في درءه حيلة .  
أحسن ، ولم يفقد هؤلاء المرابطون المجاهدون رغم ذلك كله الأمل في استنقاذ  
ما يمكنهم إنقاذه من حواضر الاسلام الأندلسي ونواحيه ، ولم تكذب تسنح لهم  
الفرصة حتى اتحدوها وأمانهم الحظ هذه المرة : ففي شعبان سنة ٥٢٤ هـ  
يوليو ١١٣٠ م توفي عماد الدولة عبد الملك بن هود أمير سرقسطة الذي ذكرنا  
كيف ترك البلد عند استيلاء المرابطين عليه ولجأ إلى حصن « روطة » المعقل  
الوحيد الذي بقي للإسلام من إمارة سرقسطة . وهناك أقام في حامية  
« ألقونسو المحارب » صاحب أرغون ، وخلقه ابنه أبو جعفر أحمد  
سيف الدولة<sup>(١)</sup> ، الذي أبقى رغم سوء حاله وانضوائه تحت لواء ملك نصراني—  
إلا أن يتخذ لنفسه أمياً خلافاً هو « المستنصر بالله » وهو لقب حالف الحظ  
السيء كل من اتخذه من خلفاء الاسلام ! ويبدو أنه ضاق بسُلطان  
« ألقونس المحارب » عليه ، فتركه ودخل في تبعية خصمه ألقونس ريمونديز  
Alfonso Raymondez ملك قشتالة الذي تسميه المراجع العربية « السليط بن<sup>(٢)</sup> » ،  
وكان المرابطون قد استولوا أثناء حملاتهم المتوالية على الثغرات الأعلى على طرطوشة  
ولاردة وإراغة I'raga ومكناسة Mequinez<sup>(٣)</sup> ، ولم يستطيعوا الاستيلاء  
على « روطة » أكبر حصون هذه الناحية ، لأن « المستنصر » نزل عنها  
ملك قشتالة الذي منحه عوضاً عنها « نصف طليطلة » كما تقول مراجعنا  
الاسلامية ، والواقع أنه لم يعطه إلا بعض الأراضي المجاورة لطليطلة بصفة إقطاع .  
وفيما بين سنتي ٥٢٥ ، ٥٢٦ هـ (١١٣٠ ، ١١٣١ م) استطاع « ألقونس المحارب »  
أن يستولي على طرطوشة ومكناسة بعد كفاح طويل ، ثم توجه بقواته نحو

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ص ١٣

(٢) أشباح : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (ترجمة الأستاذ محمد عبد الله

عنان) ج ١ ص ١٧٢

(٣) Codera, Almoravides, p. 12-13

«إفراغة» وكانت كوكز العقاب تشرف على نهر «أنجا» فحاصرها حصاراً شديداً، وأسرع لنجدها أمير مرابطين من قبيلة «مسوفة» سيكون له أثر عظيم في تاريخ الأندلس خلال تنصر الموحدين وهو يحيى بن غانية جد بني غانية أصحاب الجزائر الشرقية، وكان يلي بالندسية ومرسية اعلى بن يوسف، وسار لنجدها كذلك عبد الله بن عياض عامل المرابطين على «لاردة»، وانضمت الى فواتهما قوة كبيرة من المرابطين أقبلت من جنوب الأندلس، وكان ألفونس قد عول على الموت أو الاستيلاء على «إفراغة» وأقسم على ذلك هو وعشرة من خيرة رجاله، مما يدلنا على مقدار الحماس والتفاني الذي كان يعمر نفوس هؤلاء الأسبان في هذا الدور من صراعهم مع المسلمين. وبلغ من رغبته في استئثار قومه أن أمر برفات القديسين فأتى بها الى الميدان إذكاء لروح الحماس الديني في قلوب الرجال، وجعل الأساقفة والرهبان يقودون بعض الصفوف، حتى التهب نفوس جنوده حمية، وأقبلت قوات المرابطين واشتبكت معهم مرتين لم توفق في كليهما، فوقع اليأس في قلوب أهل البلد وعولوا على التسليم. ولكن ألفونس رفض وصم على أن يفتح البلد بحمد السيف.

وهنا ثارت نفوس أهل البلد المجاهدين: واندفعوا يقاتلون قتال المستبشرين، وكرّ المرابطون على البلد مرة أخرى في عزمات قوية: واستدرجوا الجيش الأرغوني الى كمين وضعوه في الطريق، ثم انقضوا عليه من كل ناحية، وامتلكوا زمام المعركة ومنزقوا الجيش الأرغوني شر ممزق، وسقط من حماة النصراري وقوادهم وأساقفتهم في هذه المعركة نفر كبير في مقدمتهم «ألفونس المحارب» نفسه: سقط تحت سيوف المرابطين<sup>(١)</sup> في ختام هذا الصراع الرهيب الذي احتدم بينهم وبينه عشرات السنين (٣٣ رمضان ٥٢٨هـ / ١٧ يولييه ١١٣٤م).

(١) راجع عن موقعة إفراغة: الضبي: بنية الملتصق، ج ١ ص ٩٥، ٤٠٦ — ابن الأثير، الكامل: ج ١١ ص ٢١ — ابن الخطيب، الاطاحة (مخطوط الاسكوريال) ص ٢٨ — ابن عبد النعم الجيى، الروض المطار، ص ٢٤ — ٢٥  
CRONICA DE ALFONSO VII en España Sagrada, XXI pp. 333-341  
GONERA, op. cit. pp. 267-272

هكذا فشل ملك أرغون في الاستيلاء على إفراغة ولاردة . وارتفعت الروح المعنوية للمرابطين وتجدد نشاطهم ، وبدوا كأنهم مبادرون الى الافتراب من سرقسطة التي كانت قد أصبحت عاصمة أرغون ، ولكن الظروف لم تسعفهم ، ذلك أن الحظ عوض الجبهة النصرانية بملك آخر لا يقل نشاطاً - لا رغبة في مغالبة المسلمين عن ألفونسو المحارب ، ذلك هو ألفونسو السابع ملك قشتالة وليون ابن الملكة أوركا - التي ألمعنا بطرف من أخبارها - من روجها ريونديز البرغوني . كان قد تولى عرش قشتالة سنة ٥٢٠ هـ ١١٢٦ م . بعد أن توفيت أمه الطموح التي قضت في ميادين القتال معظم عمرها ، ومن غرائب المصادفات أن عام ولادته كان عام وفاة أبي الطاهر تميم الذي ظل يقوم بأمر الأندلس خلال العشرين سنة الأخيرة ، خلا بعض فترات قصيرة . وبوفاته أخذ أمر المرابطين في الأندلس بهوى في سرعة .

وليس هذا مقام ذكر ما تلا ذلك من أعمال المرابطين العسكرية في الأندلس ، لأنهم سيظلون بعد ذلك قرابة السنوات العشر يحاربون النصارى ويغازون بلادهم دون أن يوفقوا إلا إلى قليل ، لأن شئون دولتهم في إفريقية كانت قد اضطربت اضطراباً زائداً ، ولأن أهل الأندلس المسلمين انقلبوا عليهم في كل ناحية ، وقاموا عليهم يقتلونهم حيث وجدوهم ، وانتهى أمرهم في الأندلس وفي المغرب كذلك نهاية محزنة : أبادهم النصارى والأندلسيون في الأندلس ، وقضى على قواتهم الموحدون في المغرب ، ولم يبق منهم إلا فرع بني غانية السوفيين الذين اعتصموا بالجزائر الشرقية وظلوا يناوئون الموحدين حتى أيام الناصر الموحدي .

ويهمنا من ذلك كله أن دولة الاسلام فقدت سرقسطة الى الأبد ، وسنرى في الوثيقة الثالثة أن علياً بن يوسف كان مهتماً بأمرها يفكر في استعادتها . ولكن محاولاته كلها لم تسفر عن شيء .

وكان الفونس المحارب قد نقل عاصمة ملته إلى سرقسطة بعد استيلائه عليها مباشرة وحول مسجدتها الجامع الى كنيسة . وأُنزل فيها أعداداً عظيمة



من جنده وأهل أرغونة، ومنحهم حقوقاً وامتيازات، وتمكن خلال السنوات الثلاث التي تلت استيلاءه على سرقسطة من احتلال طر كونة *Tarragona* عاصمة أسبانيا الرومانية، وأعاد إليها أسقفيتها القديمة، واستولى كذلك على « قلعة أيوب » ودروقة وتجرد للاستيلاء على بقية حصون « الثغر الأعلى » مثل « شقف » وروحة ومكناسة فاستولى عليها : كما ذكرنا . واستولى خلفاؤه على افرانغ<sup>(١)</sup>. وبهذا انتهى الثغر الأعلى كله وأصبحت أقصى حدود الاسلام في شرق الأندلس بالنسبة ومرسية، وشكوانان مسرحاً لأحداث عظيمة وحروب طويلة بين النصرانية والاسلام في عصر الموحدين .

---

BALLESTERRAS : *Hist. de España*, II pp. 327 seq.

(١)

## الوثائق

### الوثيقة الأولى :

موقعة « أقليمش » من المواقع الكبرى في عهد المرابطين ، وهي أحد الانتصارات الكبرى التي أحرزها هؤلاء اللاتونيون المتحمسون الذين خرجوا من مواطنهم في إفريقية للذيد عن مصير الاسلام في الأندلس . ويقول المؤرخ « يوسف أشباخ » في « تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين » في تقدير هذه الموقعة « ويمكن أن نعتبر انتصار المرابطين في أقليمش في ٢٩ مايو سنة ١١٠٨ م ( ١٧ شوال سنة ٥٠١ هـ ) ذروة سلطانهم في إسبانيا . ومن ذلك التاريخ تنحدر قوتهم في اسبانيا عاماً بعد عام ، وتعصف روح الخروج والثورة بسلطانهم في إفريقية والأندلس ، ويفقدون سقوطهم في القريب أمراً محتوماً » ( ج ١ ص ١٢٤ من ترجمة الاستاذ محمد عبد الله عنان ) ، ولدينا عنها تفاصيل كثيرة أوردناها في الفصل التاريخي السابق ، ولا نحتاج لجهود كبير للمستبين أن هذه الوثيقة تضيف الى معلوماتنا عن تفاصيل هذه الموقعة شيئاً كثيراً جديداً .

والغالب أن « ابن شرف » كاتب الرسالة هو أبو الفضل جعفر ابن أديب إفريقية أبي عبد الله محمد بن شرف الجذامي من بلدة « برجة » بالأندلس ، وكان من شعراء المعتصم بن صامح صاحب المرية ، وقد أورد المقرئ له له في « النفع » شعراً كثيراً وأخباراً متفرقة . والظاهر أنه دخل في خدمة المرابطين بعد استيلائهم على « المرية » .

وقد أفرد ابن عبد المنعم الحميري فصلاً لأقليمش في « الروض المعطار » جاء فيه : « مدينة لها حصن في نجر الأندلس ، وهي قاعدة كور تشنيرية وهي محدثة ، بناها الفتح بن موسى بن ذى النون ، وفيها كانت ثورته وظهوره في سنة ١٦٠ هـ ثم اختار أقليمش داراً وقراراً ، فبناها وبنائها ، وهي على نهر منبعث من عين ماليه على رأس المدينة ، فيعم جميعها ، ومنه ماء حمأها ، ومن العجايب البلاط الأوسط من مسجد جامع أقليمش : فإن طول كل جائزة

من جوائز مائة شبر وإحدى عشر شبرا ، وهي مربعة منحوتة مسقوية  
الاطراف (ص ٢٨) .

وتقع أقليمش Ucles اليوم في مديرية قونقة Cuenca في ناحية Tarancón  
في إسبانيا كما ذكرنا .

cf. LEVE PROVENÇAL : *La Péninsule Ibérique* ... p. 35 et n. 3  
وفد أورد كثير من المؤرخين أوصافاً مختلفة ، للمعركة التي نحن بصددھا  
ولكن الوصف الذي تقدمه هذه الوثيقة دقيق يعطينا صورته واضحة  
جداً عنها ، فهو يصور لنا ترتيب الجنود فيها ثم يتتبع تطورها في تفصيل  
عظيم القيمة من الناحية التاريخية .

### رسالة

كتب بها الوزير الكاتب ابن شرف عن بعض  
رؤساء الغرب <sup>(١)</sup> إلى أمير المسلمين <sup>(٢)</sup>  
رحمه الله في فتح أقليمش أعادها الله <sup>(٣)</sup> بقدرته

أطال الله بقاء « أمير المسلمين وناصر الدين » <sup>(٤)</sup> ، عماد الأنام وعتاد  
الاسلام ، السعيد الأيام . الحميد المقام ، كبيرى بالقدر وظهيرى على الدهر ،  
الذى أبجله بحقه وأمر له بسبقه ، وأدام خلوده مؤيد الارادة مؤيد السعادة  
مجدد النعم والزيادة . والحمد لله الجبار القهار الذى شد الأزر وأمد النصر ،  
وأعطى الفلج عن قسر ، ففلق عنه يد الماطل ، وفرق بين الحق والباطل ،

(١) كذا في الأصل ، ويراد به « الغرب » وكان هذا اللفظ يطلق على الأندلس  
يضاً في ذلك الحين .

(٢) على بن يوسف بن تاشفين .

(٣) لم يتم فتح « أقليمش » في هذه الحملة . إذ بقيت قصبة البلد في يد النصارى ،  
بما نرى ، ولهذا يقول : أعادها الله .

(٤) ما بين الشولات هو اللقب الرسمى الكامل لأسماء المرابطين .

(٥) الكتاب صادر عن الأمير تميم بن يوسف بن تاشفين حاكم الأندلس وعائد  
هذه الحملة .

والحمد لله الذي أسعد بدولة أمير المسلمين الأيام ، ونصر بسيفه الاسلام ،  
وغاظ به الكفار ، وجعل عليهم الكرة فولوا الأذبار . والله تعالى يُشفع  
سعوده ويضمن مزيده ، وينصر جنوده بمنه .

ولما أن وضعني أمير المسلمين أدام الله نصره حيث شاء من آله الشريف  
والعز المنيف . وألحقني من النعماء وأسجني أذيالها ، وصرف إلى  
من عدده وبلده ما أولاني نعمه ووالاني كرمه ، حفظت تلك الحرمة ،  
وشكرت لأستزيد من تلك النعمة ، وأخذت في الاجتهاد في الجهاد ( ف ٥ )  
عالقاً بسببه ، آخذاً بمذهبه . وهيأت من ماله عندي جيشه الموضوع بيدي ،  
وأجبت داعي الله بأعظم نية على أكرم طية ، لعزمة يمينه رأسها وعلى تقواه  
أساسها وأصلها . وسرت عن حاضرة أغرناطة حرسها الله في العشر الأواخر  
من شهر رمضان المعظم <sup>(١)</sup> بجيش تصم صوامله وتطم كواوله ، رايته خافقة  
وعزماته صادقة ، ونبراته على أسنة السعد ناطقة .

ومررنا من طاعة أمير المسلمين وناصر الدين على جهات سمعت منا دينا ،  
وتبعت هادينا . وانقادت وراءنا أعداد وأمداد ، برزوا من كون ، وتحركوا  
عن سكون ، وأنحنا بناحية بيّاسة ، وقد توافد الجمع وملى البصر والسمع .  
وأخذت في الرأي اخمّره والعزم أضمره والذيل أشمره ، وجددت  
الاستخارة لله تعالى والاستجارة به ، وابتهايت إليه داعياً ضارعاً ، وعولت  
في كل أموري على حكمه خاضعاً متواضعاً .

ولحقنا بطوف بلاد العدو أعادها الله ، فوطئناها من هنالك ، وقد بان  
عنوان الأهلينا بالأم ببيان الرتبة ، وسرنا بجيش فيضاً على أرض تقيض  
غيبضاً ، ولسيول الخيل إغراق ، ولبروق البواتر إشراق ، وقد نطقت ألسنة  
الأعني بآراءهم ، وأشرفت كواكب الاسنة في عتام القتام ومدت  
الاستخارة على كل نبيح <sup>(١)</sup> ، واستقلت الرايات عن كل قبيل قبيل وأقضت

(١) سنة ٥٠١ هـ مايو سنة ١١٠٨ م .

بنا الخيرة الى المدينة الحصينة « أقليش » قاعدة القطر وواسطة الصدر ، ذات العدد العديد والصور المشيد ، فبدر السابق وشفع اللاحق .

وغدونا يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من شوال ، فدرنا بها دور الحلقة بنقطتها ، واكتنفناها اكتناف الشيخة لسبقتها ، وهت القوم ، واتسع البحر عن العوم ، وحاروا وخاموا ، حين راموا ، وجئنا بكل صرب من الحرب ، نحسف عاليها ونسف هاويها . ويلزها بالرماح ، ونهزها هز القمصن في أيدي الرياح ، حتى فض اختم وعُض منه الابهام ، وعجل الله بالنصر وفتحها بالقسر . ونفخ في صورهم ، ودارت دائرة السوء بدورهم ، ومحققهم السيوف محي الربا ، وأذرتهم ريح النصر فصاروا هبا . وبطحوا بطح زرع الحصيد ، وبسطوا بسط كلب الوصيد ، وأخذتهم فجأتنا أخذة ، ونبذت بهم سطوتنا فبذة ، نفروا إلى الأذنان ، وسبقوا إلى الموت والأذنان ، فاكدنا نزل حتى كيدنا ذلك المنزل ، وما أنحننا حتى رضخنا ، ولا وصلنا إليه حتى حصلنا عليه ، فوردنا ما أردنا .

ولما استحر بهم القتل ، واجتث منهم الأصل ، وضاق بهم المزدحم ، وغص ذلك الملتحم ، قصر الوقت المبعث وشغل الأخيد (ف ٥٥) عن القلت ، وألهمي الكثير عمن قل ، ونام الجم الغنيم عن القل ، وعاذت <sup>(١)</sup> بقاياهم بقصبة المدينة فولجوها كما يلج العصفور ، ويقوم العثور ، قد غلقوا الأبواب ، وأسدلوا الحجاب ، ونحن فصل الجد ونوحر [ <sup>(٢)</sup> ] لأفل غرب ، ولأمكن حرب ، نجحت الجرائم . ونحتز الغلاصم ، ونحرب الديار وبنيانها ، ونهدم البيع وصلبانها ، وتنتاحف بهدايا السبايا ، وتكاشف عن بقايا الخبايا ، ونصرح <sup>(٣)</sup> بنيانا صدعته الختوف وغلبته السيوف ، فلا تلاله هدم وعلى رسومه ردم ، حتى علا على الشرك الايمان ، وبذل الناقوس بالأذان ، وزحزحت الهياكل عن موضعها ، وطرحت

(١) في الأصل « عادت » .

(٢) كذا في الأصل من غير نقط يمقبه بياض بقدر كلمة .

(٣) في الأصل : ونتاحفوا وتكاشفوا ، نصرحوا ، وهي أخطاء وقع فيها الناس نتيجة للاملاء ، وهذه الطاهرة تدل على أن أهل الاندلس كانوا يصفون على أواخر الكلمات ، وتلك حقيقة نطقية ( مونيتيكية ) جديدة بالملاحظة .

النواقيس عن بيعها ، ولأذ بنا من هنالك من المسلمين عاتذين بنا مستسلمين لنا ،  
فناشدونا بالملة وحرمتها ، وكشفوا لنا عن الخلّة وسدتها ، وفروا من الحملة  
إلى الحملة ، فأوينا شاردهم ، وأقمنا قاعدتهم ، فأنجابت كُرْبَتهم ، وعادت بعد البوار  
ومجاورة الكفار بشرّ دارملتهم ، وأنازلهم الاسلام على منار الإيمان المجرد ،  
واشتهر فيهم التوحيد اشتها الحسام المجرد ، وكشف الدين عن مضمرة ،  
وخطب الحق المبين على منبره .

وأقمنا بقية يومنا على ذلك إلى أن خام النهار ، وحان من الشمس الاصفرار .  
فعند ذلك أرحنا البواتر ، وغیضت تلك الدماء الهوامر ( ١٥٦ ) وغدا الخميس  
في الخميس ، مبنياً على ذلك التأسيس ، يجر أذیال الظفر في العدد الأوفر ،  
يشفع الأولى بالتوالى ، ويشترى العولى بالعوالى ، فأصبحنا في عز وأنس ،  
وأصبحوا لانرى إلا مساكنهم كأن لم یغنوا بالأمس .

وتضامت تلك العصبة إلى تلك القصبة ، والقوم في السجن ، والحصن  
في الحصر ، كالواحد في العالم . والاصبغ في الخاتم ، « والحصور مأسور  
وصاحب الحائط مقهور »<sup>(١)</sup> ، ولم تزل نوسعهم قتالا ونوسعهم ضرّاً ونكالا  
مسافة اليوم إلى أن جزر النهار مدّة ، وبث الليل جنده ، فعدا إلى محلنا وقد أملّ  
الكال<sup>(٢)</sup> أينّه ، وغلبت الساهر عيته ، وكنت لم آل احتراساً للمحلة بطلائع تحرس  
جهاثها وتدرأ آفاتنا ، وفي القدر ما يسبق النذر ويفوت الحذر ، ولكن  
كفاية الله خير من توقينا .

وكان الطاغية<sup>(٣)</sup> زاده الله ذلاً قد حشد أقطاره وحشر أنصاره ،  
وأبعد في الاستصراخ مضاره ، وعبا جيشاً قد أسرا إلى ذمّر<sup>(٤)</sup> ، وانطوى  
على غمر ، فأقدم وصمم ، وبئس ما تيمم ، فاستسلمت جماعتهم على ابن الطاغية

(١) يبدو أن هذا كان من الأمثال الأندلسية .

(٢) يريد ألفونس السادس صاحب قشتالة وليون .

(٣) كلمة لم أستطع قراءتها والقدر زار الأعداء .

اذفونش<sup>(١)</sup> وصاحب شوكتهم البرهانس<sup>(٢)</sup> والقمط بقبدر<sup>(٣)</sup> وقواد  
بلاد طليطلة وصاحب « قلعة النسور » و « قلعة عبد السلام » . وكل قاص  
ودان ، ( ٥٦ ف ) وماجل وأخزى الله جميعهم ، وطل نجيعتهم ولا أقام صريعهم .  
وهذا دعاء لو سكت كُفَيْتُهُ لأنى سألت الله ربى وقد فعل

وطرقوا من طرف يجتمعهم يريدون الغرة ، ويظهرون صلفاً تحت الغرة ،  
وتقدموا فتقدموا ، ودنوا فهبوا ، ووصلوا لحصلوا . وأرسل الله تعالى  
من جنده حتى كانوا قد سبوه مسيراً واقتنوه أسيراً ، والله تعالى فيه خبيثة  
أعدها من عنده وبعثها لجنده ، ونزع<sup>(٤)</sup> الفتى إلينا من معسكرهم متنبئاً بهم  
دالاً عليهم . وكاشفاً بهم عن النبأ العظيم ، ومطلعاً منهم على المقعد المقيم ،  
فعند ذلك ثارت ثائرتنا ، ودارت على مركز التوفيق دائرتنا ، وقام القاعد  
وأشار البنان والساعد ، وتضام الفريب والمتباعد ، والليل قد هدأ ، والصبح

(١) الإشارة هنا إلى « سانشو » وحيد ألفونس السادس الذى قتل فى هذه المعركة .  
(٢) البرهانس هى الصيغة المربية للفارس القشتالى المعروف Alvar Hanez  
ابن عم السيد القميطور وعدوه اللدود فيما بعد ، ونصير ألفونس السادس صاحب قشتالة  
وليون فى كل حروبه ، وقد انترك فى جميع المواقع التى وقعت بين ألفونس والرايطين ،  
وقد كان من كبار فرسان قشتالة فى معركة « أقليمش » وانهمز مع من انهمز ، وخسر  
اقطاعه فى قرية ثوريتا Zorita حينما استولى الرايطون على قوطة Guenon بعد  
انتصارهم فى أقليمش ، وقد أقامه الفونس بعد ذلك حاكماً لطيطة ، وقام بالدفاع عنها حينما  
حاصرها « الرايطون » فى سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م . وقد توفى سنة ١١١٤ م على يد أهل  
سغوية Segovia فى الحروب التى استمرت بين الفونسو المقاتل صاحب أرغون والملكة  
« أوروكا » صاحبة ليون وقشتالة .

cf: MENÉNDEZ PIDAL: *La España del Cid*, II p. 626

(٣) الإشارة هنا إلى الكونت « جاوينا د كبرآ » Garcia de Caba مؤدب  
الأمير « سانشو » الذى قتل فى المعركة .

cf: BALLESTROB: *Hist. de España* II. p. 323.

(٤) لفظ « نزع » هنا مستعمل استعمالاً خاصاً ، لأن « النزع » فى الاصطلاح  
الأندلسى هو الجندى الذى يندس فى جيش الأعداء أو يدخل معهم حصنهم متكرراً  
فى زيم حتى يشرف أخبارهم أو يثبتهمهم ، ثم ينزع إلى قومه ساعة الحاجة إليه  
أو بعد سقوط الحصن ، وكان فى الأنظمة الحربية الأندلسية ديوان خاص لهؤلاء يعرف  
« بديوان النزاع » .

فد بدأ . والدجاجير ممدودة السرائق ، مجموعة المياليق ، ولا جبار إلا الفاسق <sup>(١)</sup> ولا مار إلا السما والطارق ، وكنت قد استنديت القائدين المجريين ذوى النصيحة والآراء الصحيحة « أبا عبد الله محمد بن عائشة » وأبا محمد عبد الله ابن فاطمة <sup>(٢)</sup> وليسى أعزها الله . فجلا في مضمار وساع واضطلاع ، بذرع وذراع ، فاجتمعنا على كلمة الله متعاقدين . وخضعنا إلى حكمه مستسلمين . فعند ذلك حل يده المحتبي ، وقيل يا خيل الله اركبي ، فعادت الآراء بالرايات . وحكمت الهى فى النهايات ( ١٥٧ ) والأسنة تجول <sup>(٣)</sup> فى آمادها ، والنصول تصول فى أغمارها . وترنا كما تار الشهم بفرصته ، وطار الشهم لفرصته <sup>(٤)</sup> ، وأمرت رجالا بلزوم المحلة فسدوا فرج أبوابها ، ولاذوا بأوتادها وأسيابها ، فداروا بها دور السوار ، وانتظموها انتظام الأسوار ، قد شرعوا الأسنة من أطرافها ، وأجالوا البواتر فى أكنافها وأضاقوا الأفنية ، وقاربوا بين الأخبية . وعبأنا الجيش يمناء ويسراه ، وصدره ولهاه ، وساقته وأولاه .

ونهبنا بجملتنا من محلتنا ، والصبر يفرغ علينا لآمد ، والنصر يبلغ إلينا سلامه ، وتوجهنا إلى الله نفتق سبيله ، ونبتغي دليله ، فما رفع الفجر من حجابيه ، ولا كشر الصبح عن نابه ، حتى ارتفعت ألوية الدين سامية الأعلام ، واتسعت أفضية المسلمين ماضية الأحكام ، وقبض الليل مُخمسُه ، وفضح الصبح نفسه ، ولسن السنان لمعان ، ولشباب العراك ريمان ، ولا خفاق الأعلام ضراب أو طعان .

(١) أى العدو .

(٢) لم نعلم إلا من هذه الوثيقة أن هذين القائدين المرابطين الكبيرين حضرا هذه المعركة .

(٣) فى الأصل : وإلا يحول .

(٤) فى الأصل من غير نقط ، وقد جاء فى لسان العرب : « لا وفرضة النهر ثلثته التى منها يستقى ، وفى حديث موسى عليه السلام : « جئى أرفأبه عند فرضة النهر أى مشرعة ، وجمع الفرضة فرس ، وفى حديث ابن الزبير : واجعلوا السبوف المنايا فرضا أى اجعلوها مشارع للمنايا وتمروا بالشهادة » ( ج ٩ ص ٧١ ) ولهذا قرأناها : فرضة .



وعند ذلك نجم « المعجم » في سواد الليل وإزباد السيل ، يهطعون إلى داعيهم ، ويهرعون إلى ناعيهم ، في دروع كالبورى ، ورماح كالصوارى كاتما شجروا بالديد ، وسجنوا في الحديد ، يزحفون والحين يعجلهم ، ويركبون [ والموت ] يؤجلهم ، يتلمظون تلمظ الحيات (٥٧ ب) قد تحالوا أن لا يتخالفوا ، وتبايعوا أن يتشايعوا ، ووصلوا إلى مقدمتنا ، وكان هناك القائد « أبو عبد الله محمد بن أبي تراب »<sup>(١)</sup> مع جماعة ، فصددهم العدو بصدور نمرية وقلوب أشيرة ، فأنحوا بكل كل أورموا بجدل ، وشدوا فمردوا ، وصادروا فما صدوا ، وتقهر القائد « أبو عبد الله » غير مؤلٍ وتراجع غير نخل إلى أن اشند منا بطود ، وزحم من جيشنا بعود .

فتراى الجمعان ، وتدانى العسكران ، وأمسكتنا ولائجين ، ووقفنا والأناة يمن ، فعند ذلك ثار النصر فدمى مناه ، وأتى الصبر فأشرق بحياه ، ونزات السكينة ، وأخلصت القلوب المستكنة ، واهتزت الفياق مائجة ، وهدرت الشهاسق هائجة ، وجحظت العيون غضباً ، وطلبت البوار سبياً ، وأذن الحديد بالجلاد ، وبرزت السيوف عن الأغمد ، وتساهلت الخيول وتطاولت القبول ، فعند ذلك تواقف القوم كوقفة الفبر ، بين الورد والصدر ، فبرز فارس من العرب<sup>(٢)</sup> . فطعن فارساً منهم فأدراه من مركبه ، ورماء بين يدي موكبه ، فأنهج ، ما ارتج ، وانفتح المهبم وأفصح المعجم ، فعند ذلك اختلطت الخيل ، بل سال السيل ، وأظلم الليل ، واعتنقت الفرسان ، وانذقت الخرصان<sup>(٣)</sup> ودجاليل القتام ، وضاق مجال الخيش اللهام ، واختلط الحسام بالأجسام ، والأرماح ( ١٥٨ ) بالأشباح ، ودارت رحى الحرب تغر بشكالها ، وثارت نائرة الطعن والضرب تفتك بأبطالها ، فلتغر الصدور ابتعاد ، ولجزم القلوب

(١) هذه هي المرة الأولى التي يرد فيها ذكر هذا القائد المرابطي .

(٢) للمرة الأولى يرد ذكر « العرب » في القتال في الأندلس في ذلك العصر ، والغالب أن نقرأ من العرب المولدين ، الذين كانوا في المغرب إذ ذاك ، عبر مع المرابطين إلى الأندلس للاشتراك في الحروب مع الصارى ، وسيترك هؤلاء العرب في تلك الحروب شكل ظاهرياً للموحدين .

(٣) جاء في اللسان (ج ٨ ص ٢٨٧) خرسان : جمع خرص سنان الرمح ، أو هو الرمح نفسه

انتهاه، ؟ فلا وضّحَ النهارُ ، ولا مسحَ الغبارُ ، حتى خضعت منهم الرقاب ، وقبلت رؤوسهم الزاب ، واتصل الهلك بالشرك ، ومادت الضالة إلى الملك ، وقُلم ظفر الكفر ، وطأت أيمان الإيمان ، وفر الصليب سلباً ، وعجم عود الإسلام فكان طيباً <sup>(١١)</sup> ، وغمرهم الختف فهمدوا ، وأطفأهم الحنين فخدموا ، ومات جلهم بل كلهم ، وما نجا إلا أقلهم ، وحانوا فبانوا ، وقيل كانوا ، وكشفت الميوات . واجملت تلك المنات ، عن رسوم جسيم قد قصفتها البواتر ، ووطأتها الخوافر ، خاضعة للحدود عائرة الجدود ، وأخذت ساقتنا في الطلب وضم السلب إلى السلب . وملئت الأيدي بذيل وافي الكيل ، خيلا وبغلا وسلاحاً ومالا ، ودروعاً أكلمهم حملها ، وأنملهم حملها ، فساءت ملبساً وصارت مخسباً ، فطرحوها كأنهم منحوها ، وألقوها كأنهم أعطوها . احتزناها نهياً ، وأخذناها كأن لم تكن غصباً ، لقطة ولا نكر ، وعطية ولغيرهم شكر ، ثم أمرت بجمع الرؤوس ، فأحيزت الدافية وزُهد في جمع النائية ، فكان مبلغها نيفاً على ثلاثة آلاف منهم غرسية أوردونش <sup>(١٢)</sup> والقومط (٥٨هـ) وقواد بلاد طليطلة ، وأكار منهم لم يكمل الآن البحث عنهم <sup>(١٣)</sup> ، فكانت كالمغضب الجسم ، بل الطود العظيم ، وأذن عليها المؤذنون ، يوحّدون الله ويكبرون ، فلما جاء نصر الله ، وهب لنا فتح الله ، شكرنا مولى النعم ومسديها ، ومعيد المان ومهديها ، وصدرت غائماً وأبت سالماً ، وبقي الفائدان محاصرين لحصن أقبليش آخذين بمخفرهم ، مستولين على رمقهم .

(١١) كذا في الأصل ، ولعلها « صلياً » .

(٢٢) هو الكونت García Ardoñez قائد قشتالي آخر من كبار من قتلوا في هذه المعركة ، وكان من فرسان « سانشو الثاني » ملك ليون ثم أصبح من أتباع الفرنسي السادس صاحب ليون وقشتالة ، وحارب مع السيد جينا وضده جينا ، واشترك في مدارك كثيرة ضد المرابطين ، فسكان من المدافعين عن حصن لبيط Aleido . وانهمز أمامهم في موقعة « الكراز » Alcoraz ، وانترك في المعجم على سرقة بعد ذلك ، ثم لقي حصنه في موقعة « أقيش » هذه .

: MIMNDEZ PIDEAL: *La España del Cid*, index

(٢٣) هذه العبارة تدل على أن هذا الكتاب كتب في عهد الموقعة مباشرة .

نخاطبت أمير المسلمين أدام الله سروره ووصل جواره ، معلما بالأمر ،  
مهتيا بالنصر ، بالمنعم الله عز وجل على ما وهب ، ونشكره على ما منى وسبب  
والله يتكفل بالمزيد ويشفع القديم بالجديد ، وبين النظر والتأييد ، فهو ولي  
الامتنان والمالي بالفضل والإحسان ، لارب غيره ولا معبود سواه .

#### الوثيقة الثانية :

واضح من عنوان هذه الرسالة أنها كتبت بعد سقوط سرقسطة في يد  
العميس المقاتل بسنوات ، وعند مقارنتها بأوثيقتين التاليتين يتضح أنهما  
نتيجة لها ، ولما كان تاريخهما هو سنة ٥٢٣ هـ / ١١٢٩ م . فانا نستطيع  
أن نقرر أنها كتبت في ذلك العام نفسه . ولا شك في أن أهل سرقسطة كتبوا  
استغاثات كثيرة مثل هذه ، ولكن شيئا منها لم يصل إلينا ، ومن هنا كانت  
قيمتها التاريخية ، إذ أنها صوت الجماعة الإسلامية في سرقسطة بعد أن صارت  
في أيدي النصارى بسنوات . وعلى الرغم من إصراف كاتب الرسالة في المحسنات  
البدعية وتضييعه علينا بذلك أعم ما كنا ننتظره منه ، وهو وصف حال البلد  
في ذلك الحين وصفاً واقعياً ما ديا ، كما فعل محمد بن علقمة عند ما وصف لنا حال  
أهل بلنسية في يد السيد الفمبيطور في كتابه « البيان الواضح عن الملم الفادح »  
بالرغم من ذلك لم تخل الرسالة من إشارات على أعظم جانب من الأهمية ،  
وهي علاوة على ذلك تصور لنا حالة اليأس الشامل الذي وقع فيه أهل هذا البلد  
بعد أن انقطعت الصلة تماما بينهم وبين إخوانهم المسلمين في كل ناحية ،  
ولهذا كله فهي جديرة بالدراسة ، وقيمتها التاريخية عظيمة ، أما قيمتها كنص  
أدبي فلا تحتاج إلى بيان .

وقد حاولت أن أعرف على شخصية ثابت بن عبد الله كاتب هذه الرسالة ،  
فلم أجد له ذكراً في مراجعتنا الأندلسية ، وهذا هو المنتظر ، لأنه كان من  
هذه الجماعة الإسلامية السرقسطية التي قدر لها أن تنفصل عن العالم الإسلامي  
انفصالا تاما ، وتحتفي في العالم النهراني شيئاً قشعياً .

## رسالة \*

كتب بها قاضي سرقسطة والجمهور فيها إلى  
الأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين<sup>(١)</sup>  
حين حاصرها ابن رذرمير<sup>(٢)</sup> واستنفلها<sup>(٣)</sup> أعادها الله

من ماترى طاعة سلطانه ومستنجديه على أعداء الله ثابت بن عبد الله<sup>(٤)</sup>  
وجاعة سرقسطة من (الجمهور)<sup>(٥)</sup> فيها من عباد الله .

أطال الله بقاء الأمير الأجل ، الرفيع القدر والحل ( )<sup>(٦)</sup> لحرم الاسلام  
يمنعه ( ١٥٩ ) ( )<sup>(٧)</sup> من كرب عظيم على المسلمين يزيحه عنهم ويدفعه .

( كته ) ابنا أيدك الله بتقواه ، ووفقك لا شراء دار حسنة بمجاهدة عداه ،  
يوم الثلاثاء السابع عشر من الشهر المبارك شعبان<sup>(٨)</sup> ، عن حال قد عظم بلاؤها ،  
وأدهمت ضررها ، فنحن في كرب عظيم وجهد أليم ، قد جل العزا (ء وعظم)  
الخطب ، وأظلم الهلاك والعطب ، فيا عوناه ! ثم يا عوناه ! الى الله دعوة ( ) (تن)

\* صفحة ٥٨ ب مخطوط رقم ٤٨٩

(١) عامل الأندلس 'إلى بن يوسف بن قافين في ذلك الحين .

(٢) ويكتب في بعض المصوح : « ابن رذمير » و « ابن رذمير » وهي صيغة أقرب  
إلى الصحة ، لأن الصيغة الأصلية لهذا الاسم Rudimir وهو من أسماء الجرمان  
وقد حرفة الاسبان إلى Ramiro ، فالصيغة العربية إلى هذا أقرب إلى الأصل الجرمانى  
من الصيغة الاسبانية . والمراد بابن « رذمير » هنا القونسو الأول ملك أريون وايون  
وقتناه الملقب « بالمقاتل » El Batallador .

(٣) أى « واتولى عليها » مما يدل على أن هذا الكتاب كتب بعد سقوط البلد  
في يد الصاري سنة ٥٠٢ هـ .

(٤) ليست لدينا أى معلومات عن هذه الشخصية ، وواضح أنه قاضي البلد ، مما يدل  
أن على قاضي البلد كان لا يزال متبراً رئيس جماعتها كما كان الحال في المدن الاندلسية .  
(٥) في الأصل : « الجبل » .

(٦) هنا كلمة ناقصة في معنى « حامية » .

(٧) يرض في الأصل ، الكلمة النقص في معنى : « ودروعا » .

(٨) لم نجد لنا الكتب السنة التي كتب فيها ، وألغالب أنه صدر بن سني

٥٢٠ — ٥٢٣ هـ ، لأن الرد عليه تاريخه سنة ٥٢٣ هـ .

دعاه<sup>(١)</sup> وأثله لدفع الضرر ورجاه ، سبحانه المرجو عند الشدائد ، الجليل الكرم والعوائد ، يا لله ! يا لاسلام ! لقد انتهك حماة ، وفقت عراه ! وبلغ المأمول من يفيضه تدهاء ، يا حسرتاه على حضرة قد أشقت على شفى الهلاك ! طالما عمرت بالايمان وازدهت باقامة الصلوات وتلاوة القرآن ، ترجع مراتع للصليان ومشاهد ذميمة لعبدة الأوثان . ويا ويلاه على مسجد جامعها المكرم ! وقد كان مانوساً بتلاوة القرآن المعظم ، تطؤه الكفرة الساق بذيهم أفدامها ، ويؤملون أن يدنسوه بقبائح آثامها ، ويعمره بعبادة أصنامها ، ويتخذوه معاطن لخنازيرها ومواطن لخماراتها ومواخيرها<sup>(٢)</sup> . ثم يا حسرتاه ا على نسوة مكنونات عذارى ، يُعُدن في أوثاق الأسارى ، وعلى رجال أصبحوا حيارى بل هم سكارى وما هم بسكارى ، ولكن الكرب الذى دهمهم شديد والضر<sup>(٣)</sup> (هـ) الذى مسهم عظيم جهيد ، من حذرهم على بنيات — كى من الستر نجبار الوجوه<sup>(٤)</sup> — أن يروا فيهن السوء والمكره ، وقد كى لا يدون للنظار ، ظالآن حان أن يبرزن إلى الكفار ، وعلى صبية أطفال قد كانوا نشبوا في حجور الايمان ، يصيرون في عبيد الأوثان أهل الكفر وأصحاب الشيطان . فما ظنك أيها الأمير<sup>(٥)</sup> بمن يلوذ به بعد الله الجمهور بأمة هى هى وقايد هذه العظامم الفادحة والنوائب الكالحة ؟ هو المطالب بدمائها إذ أسلمها

(١) كذا في الأصل ، والقاب أن صحة القول ناقص : « مؤمن » .

(٢) هذا يدل على أن مسجد سرقطة الجامع كان قد تم تحويله إلى كنيسة قبل تاريخ الخطاب أى قبل سنة ٥٢٣ هـ . مما يدل على أن القونسيو المقتل لم يكذب يدخل البلد حتى خاف الشروط التى كان قد طامد المسلمين عليها .

(٣) كذا في الأصل ، ولعل صحتها : « نجبيات » أو « مخدرات » .

(٤) هنا يبدأ الجزء الثانى من الخطاب : جزء مهجة المرائيين ولومهم وتحميلهم مسؤولية كل ما يصيب الاسلام في أيديهم من المصائب . وقد كانت الاندلسيين على المرائطين جرأة بلغت حد الاهانة في كثير من الأحيان . وواضح أن الاندلسيين لم يكونوا يحترمون المرائطين ، بل كانوا يكرهونهم ، ولم يكونوا يتوجهون اليهم في طلب العون إلا تحت ضغط الحاجة .

في آخر ذمائها ، و تركها أغراضاً لأعدائها ، حين أحجم عن لقاءها <sup>(١)</sup> ،  
 قال الله بك المشتكى ثم إلى رسوله المصطفى ثم إلى ولي عهده أمير المسلمين المرتضى ،  
 حين ابتعثك بأجناده وأمدك بالجم الغفير من أعداده نادياً لك إلى مقارعة العدو  
 المحاصر لها وجهاده ، والذب عن أوليائه المعتمدين بحبل طاعته والمتجملين  
 السبعة الأشهر الشدائد الهائلة في جنب موالاته ومشايعته ، من أمة قد نهكهم  
 ألم الجوع وبلغ المدي بهم من الضراوحيح ، قد برح بهم الحصار ، وقعت عن نصرتهم  
 لأنصار ، فترى الأبطال بل الرجال جوعاً يجرّون ، يلوذون برحمة الله ويستغيثون ،  
 ويتمنون مقدمك بل يتضرعون ، حتى كأنك قلت اخسأوا فيها ولا تكلمون !  
 وما كان إلا أن وصلت وصل الله بك بتقواء على مقربة من هذه الحضرة ،  
 ونحن ( ١٦٠ ) نأمل منك بحول الله أسباب النصره بتلك العساكر التي أقر الله  
 بهاؤها وسر النفوس زهاؤها ، فسرعان ما انتهيت وما انتهيت ! وارعويت  
 وما أدنيت خائباً عن اللقاء ناكصاً على عقبيك عن الاعداء ، فما أوليتنا غناءً  
 بل أوليتنا بلاً وعلى الداء داء بل أدواء ، وتناهت بنا الحال جهداً والتواء  
 بل أذلت الاسلام والمسلمين واجترحت فصيحة الدنيا والدين !

فيا لله وبالإسلام ! لقد اهتضم حرمة وحماه أشد الاهتضام ! إذ أحجبت  
 أنصاره عن إعزازه أقبج الاحجام ، ونكصت عن لقاء عدوه وهو في فئة  
 قليلة وأمة رذيلة ، وطائفة قليلة يستنصر بالصلبان والأصنام ، وأنتم تستنصرون  
 بشماثر الاسلام ، وكلمة الله هي العليا ويده الطولى ، وكلمة الذين كفروا  
 السفلى ، وإن من وهن الايمان وأشد الضعف الفرار عن الضعف ، فكيف  
 عن أقل من النصف <sup>(٢)</sup> ؟ فما <sup>(٣)</sup> قبج من رضى بالصغار وسيم <sup>(٤)</sup> خطة

(١) هنا يدعى أهل سرقة على الرابطين تهمة لا أساس لها : تهمة الاحجام  
 عن لقاء العار ، وقد أثبتنا في المقال أن الرابطين بذلوا في سبيل الاسلام الأندلسي  
 ما لم يبذله غيرهم ، وقد كانت الحرب بينهم وبين الموحدين إذ ذاك على أشدها ، وقودهم  
 عن عون سرقة إنما كان سيئه سوء ظنهم ، لا الاحجام عن لقاء النصارى .

(٢) ربما أطمئنا هذه الاشارة على تحديد تاريخ هذا الخطاب .

(٣) كذا في الأصل ، والغالب أن صحتها : « فيا » .

(٤) في الأصل « وسج » وهي غلطة وقع فيها النسخ نتيجة الإملاء ، وهي تؤيد  
 ما أشرنا إليه من ضبط الأندلسيين على أواخر الكلمات .

المخسف ، فما هذا الجبن والفرع ؟ وما هذا الملعع والجزع ؟ بل ما هذا العار والضيق ؟ أنحسبون <sup>(١)</sup> يامعشر الرابطين ، وإخواننا في ذات الله المؤمنين ، إن سبق على سرقة السرقة القدر بما يتوقع منه المكروه والحذر ، أنكم تبغون بعدها ريقاً ، وتجدون في سائر بلاد الأندلس — عصمها الله — مسلحاً من النجاة أو طريقاً ؟ كلا ! والله ليسو منكم الكمار عنها جلاء وفراراً ( ٦٠ ب ) ! وإيخرجكم منها داراً فداراً ! فسرقة حرسها الله هي السد الذي إن فُتق فقت بعده أسداد ، والبلد الذي إن استبيح لأعداء الله استبيحت له أقطار وبلاد !

فلاَن <sup>(٢)</sup> أيها الأمير الأجل ! هذه أبواب الجنة قد فتحت ، وأعلام الفتح قد طلعت ، فائتية ولا الدنيه ! والنار ولا العار ! فأين النفوس الأبية ؟ وأين الأئمة والحجوة ؟ وأين الهمم المرابطية <sup>(٣)</sup> ، فلتقذح عن زنادها بانتضاء حدها ، وامتناء جدها واجتهادها ، وملافة أعداء الله وجهادها ، فإن حزب الله هم الغالبون ، وقد ضمن تعالى لمن يجاهد في سبيله أن ينصره ، ولمن جأى عن دينه أن يؤيده ويظهره ، فما هذا الأمير الأجل ؟ ألا ترغب في رضوانه واشتراء جناته بمعارعة حزب شيطنة ، والدفاع عن أهل إيمانه ؟ فاستمن بالله على عدوه وحربه ، وأعمد ببصيرة في ذات الله إلى إخوان الشيطان وحزبه ، فانهم أغراض للمنايا والخوف ، ونهز للرماح والسيوف ، ولا ترض بحطة العار ، وشوء الذكر والصيت في جميع الأمصار ، ولانكن كن قتل فيه : يجمع الجيش ذا الألوف ويعزرو ولا يرزا من العدو فتيلاً

ولن يسمعك عند الله ولا عند مؤمن عذر في التأخر والارعواء ، عن متاجزة الكفار والأعداء ، وكتابتنا هذا أيها الأمير اعتذار تقوم لنا به الحجة

(١) هنا يلجأ أهل سرقة السرقة إلى تهديد الرابطين وتخويفهم ، وهي خطوة بعد القوم والتأنيب .

(٢) هنا يهود السرقسطيون إلى الرجاء والاستطاف . وواضح أن كاتب الخطاب كان دحلاً ماهراً لبقاً ، يعرف كيف يجمع في كتابه كل ما عساه أن يستنهض الهمم ويشير النفوس .

(٣) لاحظ هذه البارة وما بعدها .

في جميع البلاد، وعند سائر العباد، في إسلامكم إيانا إلى أهل الكفر والحاد. ونحن مؤمنون بل موقنون من إجابتكم إلى نصرتنا، وإعذارك إلى الدافع عن حضرتنا، وأنت لا تتأخر عن تلبية ندائنا ودعائنا، إلى استنقاذنا من أيدي أعدائنا، فدفاعك إنما هو في ذات الله وعن كلمة (الدين ورب) (١)، وعاماتك عن الاسلام وحزبه، فذلك الفخر الأنبل لك في الأخرى والدنيا، ومورث لك عند الله المنزلة العليا. فكم تحيي من أمم، وتجلي من كرب وغم

وإن تسكن منك الأخرى، وهي الأبعد عن متانة دينك وصحة يقينك، فأقبل بسكرتك على مقربة من سر قسطة — عصمها الله — ليخرج الجميع عنها، ويرأ إلى العدو وقه الله منها (٢). ولا تتأخر — كيف كان — طرفه عين، فالأمر أضيئ، وإلجال أزهر، فقد بنا (٣) عن المظل والتسويق، قبل وقوع المكروه والخوف، وإلا فأنتم المطالبون عند الله بدمائنا وأموالنا، والمسؤولون عن صيبتنا وأطفالنا، لاحتجامكم عن أعدائنا (٤) وتببطكم عن إجابة ندائنا، وهذه حال نعيذك أيها الأمير الأجل عنها، فإنها تمسكك من العار ما لم تحمله أحداً، وتورثك وجميع المرابطين الحزى أبداً، فأنه الله اتقوه وأبدوا دينه (٦١ ب) وانصروه، فقد تعين عليكم جهاد الكفار، والذب عن الحرم والديار. قال الله: «يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة...» الآية، وقد برئتم باسلامنا للاعداء من نضر الاسلام، وعند الله لنا لطف خفي، ومن رحمته يقول (المنعم) الحيفي، ويغنيننا الله عنكم، وهو الحميد الغني!

(١) أنقذت هذه العبارة يستقيم السياق.

(٢) هذه إشارة مهمة، فقد كان الخروج من المدينة يباح لمن أراد من المسلمين، من هؤلاء كانوا يخشون أن يتغلبهم الصوس وجند الصدي في الطريق، وقد حدث ذلك كثيراً ولم لهذا يرجون أن يقترب من البلد جيش سراجلي ليخرجوا من البلد ويسيروا إلى بلاد الاسلام في جهاد.

(٣) في الأصل: فديننا.

(٤) في الأصل: إعدائنا.



ومن متحملي كتابنا هذا ، وهم ثقافتنا ، نقف من كتبه حالنا على ما لم يضمه الخطاب ولا استوعبه الاطّاب بمنه <sup>(١)</sup> وله أتم الطول في الأصفاء إليهم ، واقتضاء مآلهم إن شاء الله تعالى ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته <sup>(٢)</sup>.

### الوثيقة الثالثة :

من الواضح أن هذا الخطاب إنما أمر على بن يوسف بكتابته بعد أن وصله خطاب أهل سرقسطة السابق ، وبعد أن كتب إليه القائد أبو محمد بن أبي بكر ابن سير يصف له لقاء مع النصاري عند « القلعة » ويعتذر عن هزيمته أمامهم على النحو الذي يبينه في مقدمة الوثيقة السابقة .

والكتاب من إنشاء الكاتب الأندلسي المعروف مروان بن أبي الخصال أعظم الثرين الأندلسيين في ذلك الحين ، وواحد ممن انتهت إليهم رعاية النثر الفني في تاريخ الأدب الأندلسي كله ، وقد وصفه المقرئ في « تفح الطيب » بقوله : « رئيس كتاب الأندلس » وذكر أن له مؤلفاً يسمى « كتاب سراج الأدب » ، صنفه على منزع كتاب « النوادر » لأبي علي ( القالي ) وزهر الآداب للحمصري ( القيرواني ) ( انظر ، تفح الطيب ، ج ٢ ص ١٢٤ ) ووصفه مروان « بالوزير » ممّا يدل على أنه كان على الأقل من كبار رجال بلاطات الأندلس في عهده . « أمراء الطوائف » والمرابطين ، وذكره « ابن حزم » في « رسالته » متأخراً المشاركة بترسيلة ( المقرئ ج ٢ ص ١٣٠ ) .

وربما استطعنا أن نستنتج من هذه الوثيقة نتيجة هامة لم تشر إليها للمراجع ، وهي أن ابن أبي الخصال كان في ديوان الانشاء المراتبي ، وكان يقيم في مراكش في بلاط « علي بن يوسف » ولم يشر واحد ممن رجوا للرجل إلى ذلك .

(١) هنا كلمة لم استطع قراءتها ، وربما مكث : منه . والنائب أن الناسخ أسقطها هنا عبارة في معنى : ورجائنا أن يفضّل الأمير علينا منه .  
(٢) هنا يفت الخطاب ، وكان يودنا لو عرفنا من حلة « متجملو » الخطاب وصف حوال أهل سرقسطة في ذلك الحين بقى من التفصيل .

وصدور الكتاب عن « أمير المسلمين » نفسه يدل على أنه كان مشرفاً  
إشرافاً مباشراً على أمور الأندلس في ذلك الحين ، وأن الكتب التي كانت  
تصل إلى أخيه أبي الطاهر تميم مامل الأندلس كانت تحوّل إلى رئيس الدولة  
المرابطة لينظر فيها بنفسه .

ونص الكتاب يدل على اهتمام « علي بن يوسف » بشئون الأندلس رغم  
الظروف العصيبة التي كانت تحيط به وبدولته في ذلك الحين . وتلك حقيقة  
هامّة تؤيد ما قلناه في هذا الأمير المرابطي العظيم ، وتدحض ما ذهب إليه  
دوزي وسيمونيت وكوديرا ومنتدذ يدال في حقّه ، وتؤيد كذلك ما قررناه  
من أن المرابطين ، كالترك العثمانيين ، كانوا يعتقدون أن مهمتهم الأولى  
هي الدفاع عن حرمة الاسلام .

أما « زيمة المرابطين » فأنضم في هذه الجهة الشرقية محمد بن أبي بكر بن سير  
عند « القلعة » أو « التلالة » — وهي لغة أندلسية في نطق هذا اللفظ — لحقيقة  
جديدة لم نعرفها إلا عن طريق هذه الوثيقة والتي نليناها ، ولا بد أنها كانت  
إحدى المواقع الكثيرة التي وقعت بين « المرابطين » والنصارى في طول  
الأندلس بعد استيلاء الفونس المقاتل على سرقسطة ، إذ أن المرابطين لم يكنوا  
عن محاولة استعادة سرقسطة ، وكانوا لا يتوقعون عاماً واحداً عن إرسال  
البعوث إلى ناحيتها ، وليس لدينا مع الأسف الشديد أى تفاصيل دقيقة  
عن هذه الاشتباكات ، لأن شبه الجزيرة ككل تحول إلى ميدان حرب رهيب  
يقتل المرابطين مع النصارى في كل ناحية من نواحيه ، وكانت أعداد المرابطين  
كبيرة نوعاً ما ولكن حالتهم المعنوية كانت قد ساءت بسبب اضطراب أمور  
دولتهم في إفريقية وإغلاب الأندلسيين المسلمين عليهم ، فكانوا يرتدون عن القتاه  
في كثير من الأحيان . وهذه الوثيقة تعين لنا تاريخ إحدى المحاولات لانقاذ  
الأندلس ، ونحدد لنا تاريخها وتصفها لنا وصفاً لا بأس به . ولم يستعد المرابطون  
نباثهم في الأندلس إلا في سنة ٥٢٤ هـ حينما عبر علي بن يوسف بنفسه عبوره  
الرابع الأخير لكي يخلص في أمر ممتلكاته الأندلسية بعد أن أشرقت على الضميا ع .

## رسالة\*

كتب بها أمير المسلمين إلى الأمير الأجل  
أبي محمد ابن أبي بكر هزيمة « القلعة » رحمهما الله <sup>(١)</sup>

كتابنا وفقى الله رأيك وحسن هديك ، ولا أمال عن الهدى والرشد  
سعيك ، من حضرة مراکش حرسها الله في السابع من شعبان المكرم سنة  
ثلاث وعشرين وخميس مائة . وقبله وافى <sup>(٢)</sup> كتابك تذكر فيه المية التي كانت  
للعدو — دمره الله — عليك في اليوم الذي واجهتموه فيه <sup>(٣)</sup> ، بعد أن كان لكم  
صدره وأتيح لكم نصره ، فأواخر (الأمور) <sup>(٤)</sup> أبداً أو كدوأم ، والعواقب  
هي التي تمجد أو تذل ، وإذا حسنت خواتم الأعمال فالصنع أهى وأتم ،  
وإن لسان العذر بك لحال لقصير ، وإن الله على ذلك المشهد المضيئ مطلع بصير :  
تواقفتهم مع عدوكم ، وأنتم أوفر منه عدة وأكثر ( ١٧٢ ) جمعاً ، وأحرى  
أن تكونوا أشد عن حربكم منعاً ، وأقوى دونه دنعاً ، فثبت وزلاتكم ، وجد  
ونكلكم ، وشد عقد عزيمته وحلاتكم ، وكنتم في تلك الوقعة قرة عين الحاسد  
وشمانة العدو الراصد ، وقد كانت نصبة <sup>(٥)</sup> توليكم بين يديه بشيعة <sup>(٦)</sup>  
هائلة ، ودعامتكم لولا انذلناؤه عنكم مائلة ، فشغله عنكم من غررتموه  
من الرجُل <sup>(٧)</sup> الذي أسلمتموه للقتل ، وقررتكم ، ونصبتموهم دريئة للرماح  
ثم طرتم ، ولولا مكان من أوردتموه من المسلمين ولم تصدروه ، وخذلقوه

\* صفحة ٧١ ب مخطوط رقم ٤٨٩

(١) ورد في الهامش الأيسر من النص : كتاب السكائب الأحفل . . . مروان  
ابن أبي المصلح [ رحم ] الله عليه . صح .

(٢) وفي الأصل : وافى .

(٣) إشارة إلى هزيمة « القلعة » التي ذكرناها .

(٤) وردت كلمة « أواخر » في آخر السطر متبوعاً بألفها ، وقد أضفت كلمة « الأمور »

ليستقيم السياق .

(٥) كذا في الأصل ، ولعل ممتها : « قصة » .

(٦) كذا في الأصل .

(٧) هذه الإشارة هامة . إذ من الثابت أن المراجعين تخلوا عن اللطوعة وتركوا

يسلمون منيران المدور وحدهم في بعض المواقع .

من المجامعين ولم تنصروه ، لانكشف دون ذلك الرماح جنتكم ووقاؤكم ،  
وأصريت بها ظهوركم وأقفؤكم ، عاقبتكم الله بما أنتم أهل ، فأنتم أشجع الناس  
أقفاء وظهوراً ، وأجبنهم وجوهاً ونحوراً ، ليس منكم من تدفع به كريمة ،  
ولا عندكم في الرشد روية ولا نديهة ، فتي وأي وقت تفلحون ؟ ولأي شيء  
بعد ذلك تصلحون <sup>(١)</sup> ؟ ونحمد الله عز وجهه كثيراً . فقد دنع بفضل الأهم  
الأكبر ، وأجرى بأكثر السلامة القدر : فاكشفوا بعد أغطية أبصاركم ،  
وقصروا حل اشتراككم ، والبسوا منه <sup>(٢)</sup> جنة حذاركم ، واعلموا أن وراء  
محازاتنا إياكم جزاء توفونه ويوما عصياً تلقونه ، فكفونا بعد هذه الهناة  
لداعى الرشد بين مطيع وسامع ، ومن كلمة الاتفاق والتألف ( ب ٧٢ )  
على أمر جامع <sup>(٣)</sup> ، فانكم لو [ خلصت غيوبكم ] <sup>(٤)</sup> حسنت سريرتكم ،  
واطمانت على التقوى قلوبكم ، لظهر أمركم وعلا حدكم ، ولما ذهب ريحكم  
ولا أخل <sup>(٥)</sup> جدكم ، فتوخوا في سبيل الله وطاعته أخلص النيات وأصدق  
الغزمات ، واثبتوا أحسن الثبات ، وكونوا من الحذر والتقوى على مثل ليلة الليات .  
وقد ذكر أن للعدو دمره الله مدد يأتيه من خلقه ، والله يقطع به ،  
فلتضعوا على مسالكه عيوننا تكلأ ، ولتكن آذانكم مصيخة لما يطرأ ،  
فإن كان له مدد كما ذكر قطعتم به السبيل دون لحاقه ، وأقمتم الحزم على ساقه ،  
والله تعالى يفتح لكم فيهم الأبواب ، ويأخذ بأزمتكم إلى الصواب ، إنه الحميد  
المجيد ، لا إله غيره .

(١) هذه البارة تذكرنا .

(٢) في الهامش : منا ، صح .

(٣) هذه الإشارة تدل على أنه حدث في جيش المسلمين شقاق قبل هذه الواقعة  
أو أثناءها ، والغالب أن يكون هذا الشقاق قد وقع بين الأندلسيين والمرابطين ، وهذه  
ظاهرة متكررة كثيراً في تاريخ الجهاد في الأندلس ، وقد ظهرت بشكل واضح في عجز  
المسلمين عن الاستيلاء على حصن « لبيط » وتظاهر في أسوأ صورها في هزيمة المسلمين  
الكبرى يوم « القباب » في عصر الموحدين .

(٤) يياض في الأصل ، وقد أضيفت هذه الصارفة ليستقيم السياق .

(٥) في الأصل : ولا أخل .

## الوثيقة الرابعة :

صدر هذا الخطاب عن علي بن يوسف بعد كتابه السابق بأربعة أيام فحسب ، وهو يتعلق بهزيمة « النلعة » التي دارت عليها الوثيقة السابقة ، ومن أسف أن الخطاب الذي تشير إليه ، وهو الذي يصف فيه أبو الطاهر تميم ما جرى في يوم « النلعة » قد ضاع ، ولكننا نستطيع أن نستنتج أن القائد المراتبي أقر بالهزيمة وحاول تبريرها في خطابه إلى أميره ، ولكن علي بن يوسف لم يأخذ بمعاذيره وكتب إليه يلومه في أسلوب عنيف قاس ويفهم من نص الخطاب أيضاً أن صدر اليوم كان للمرابطين ، وأن الهزيمة دارت عليها في نصفه الثاني ، وهذه ظاهرة كثيرة التوارد في مواقع المراتبين ، وتعليلها بسيط : وهو أن المراتبين كانوا يجمعون بحماس شديد فيزولون العدو عن مواقعه لأول وهلة ، ولما كانوا يحاربون من غير دروع ثقيلة في حين أن خصومهم كانوا لا يدخلون المعركة إلا مدرعين تدريباً كاملاً فقد كان من الطبيعي أن تكون نسبة قتلهم خلال الساعات الأولى عالية جداً ، ومن ثم كانت صفوفهم تتخاضل ولا يستطيعون الثبات في نصف المعركة الثاني .

وهذه الرسالة على صغرها عظيمة الدلالة ، نستطيع أن نستنتج منها نتائج هامة فيما يتصل بموقف علي بن يوسف من الأندلس وادتمامه بمصره في ذلك العام . والوقائع التاريخية كلها تؤيد ذلك ، وفيما يتصل كذلك بأسلوب الخطاب الذي كان يجري عليه ديوان الأندلس المراتبي في مخاطبة القواد . وكتب الخطاب هو أبو الخصال ، ونلاحظ أنه بالغ في إهانة المراتبين على عهد الأندلسيين ، في الكتابة عنهم ، وعند عبد الواحد المراكشي خطابات تشبه هذا من ناحية الروح والأسلوب ، بل بلغ من قوة أسلوب الخطاب ذات مرة أن غضب علي بن يوسف على الكاتب . وربما فهمنا من ذلك أن « علياً » لم يكن يقرأ هذه الكتب قبل إرسالها . وطبعاً كذلك أنه لم يكن ليفهم هذا الكلف اللغوي الذي كان كتاب الأندلس في ذلك العصر يسرفون فيه .

## رسالة

وله إلى المذكورين <sup>(١)</sup> مجاوباً لهم بهزيمة

ابن رذير إياهم في « القلعة » <sup>(٢)</sup>

كتبنا أبقاكم الله وأكرمكم بتقواه وكنفكم بعصمته وجعلكم في حماه وأسبغ عليكم عوارفه ونعمه ، من حضرة مراکش حرسها الله في الحادي عشر من شعبان المكرم من سنة ثلاث وعشرين وخمسة ، غب ما وافانا كتابكم الأثير ، مضمناً وصف اليوم الذي جرت به خزية المقادير ، فاستعرضناه وتقرر لدينا جميع ما حواه <sup>(٣)</sup> ، وفي علمه سبحانه موقع ذلك لدينا وعزازه شأنه علينا ، لكن لا يخرج عن القضاء وحكمه ، ولا يحيد عن القدر وحتمه ، ولن يرد حول محال ما سبق في علمه ، وما ألونا -- وهو عز وجهه أعدل الشاهدين -- جدأ وعزماً وكدها لاعلاء كلمة الاسلام ، وحزماً ببذل الأموال وتخيير الرجال واعتياص الأسلحة والأفراس ، والجميع بين الایماش والایناس في الوعد والوعيد والتخصيص والتأكيد ، وعرض الآراء المتخيل فيها السداد وبلوغ مد ( ) حمة جهاد في كل نحو والاجتهاد لو كان العون موجوداً ولم يكن التعذير ( ) صيد <sup>(٤)</sup> حاضراً عتيداً ، والله يخزي كل خائن ماين باستخاطه تعالى داین جزاه ، ويرديه بُرد مضمّسه ورداه ، ويوشك مقارضته وإرداه بحوله وطوله ، وبالله القسم الأعظم لو أمكننا أن نكون لديكم حاضرين لأسرعنا بذلك مبادرين ( ١٧٤ ) ولما ثانا عن حمايتكم بنفسنا ثان ، ولا قعد

\* صفحة ٧٣ ب مخطوط ٤٨٩ .

(١) أهل سرقسطة الذين كتبوا اليه ( الوثيقة الثانية ) .

(٢) كذا في الأصل ، وهي صينة في « القلعة » . و « القلعة » على مقربة من غرناطة .

(٣) في الأصل : نواه .

(٤) خرم في المخطوط .

ينأ عن معالجة نصركم تراح ولا توان . وقد جددنا الآن أحث<sup>١</sup> نظر ونحو  
نردفه بما يكون عليكم أنتم<sup>(١)</sup> وأريد وأسرع منتظر ، فلتهدأ ضلوعكم  
ويسكن مروعكم ، فما لنا والله يشهد هم سوى الذباب عنكم والدفاع ، والافتراء ،  
لذلك والاستجاء ، والاجتهاد ، والتوفر عليه بأنتم الاضطلاع ،  
والله عز وجل المعين المنجد ، فلم يزل يعضد على ما يرضيه ويؤيد ، لا إله إلا هو .

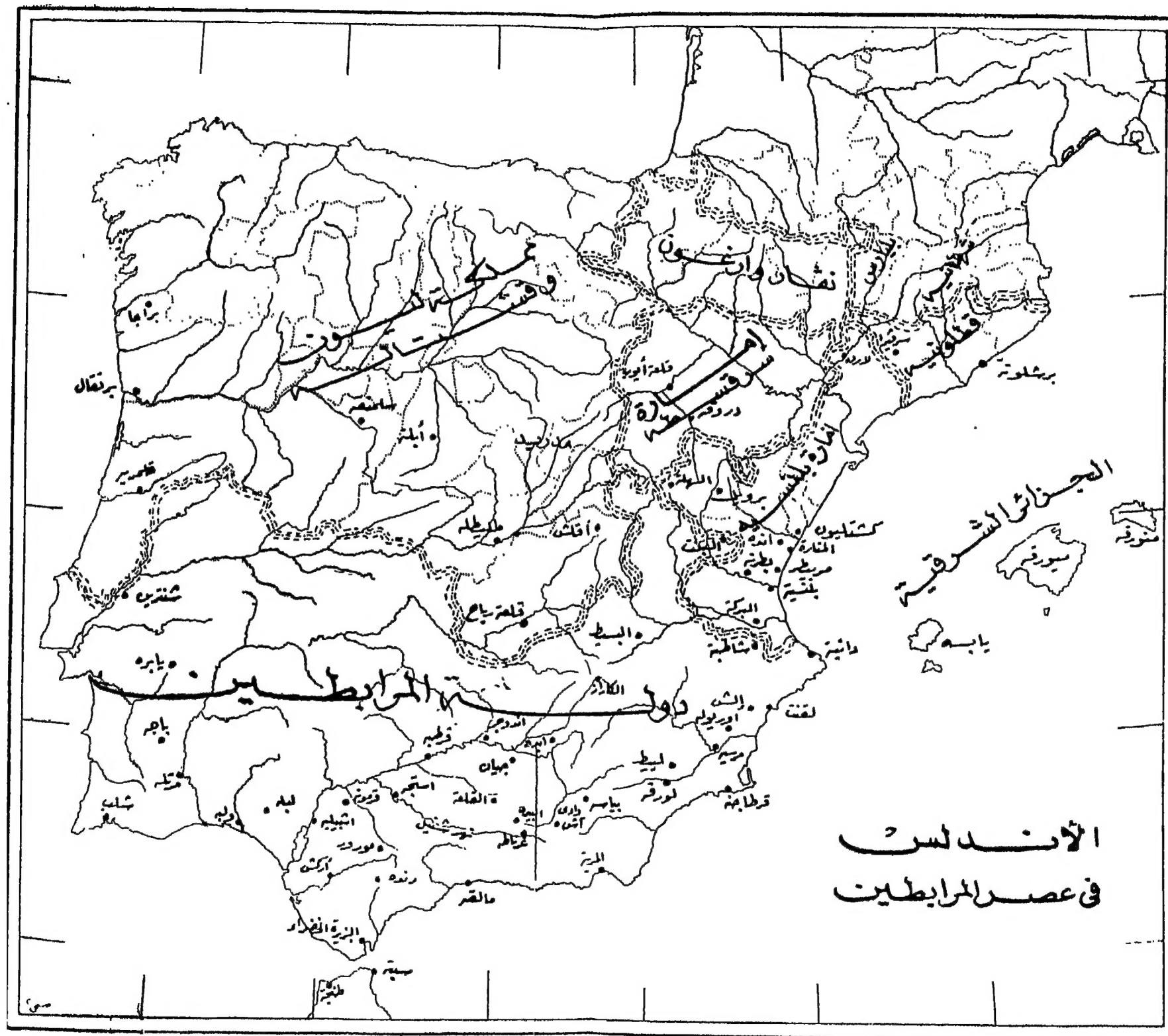
---

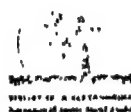
(١) في الأصل : ألم

١٢ / ٧٠٦٤	رقم الإيداع
977 - 5365 - 02 - 3	الترقيم الدولي









General Organization for the Alexan-  
dria Library (General)  
*Bibliotheca Alexandrina*